البخلاء

أبو بحر بن عثمان الجاحظ

المركز العربي الحديث

القاهرة - ١٠٣ شارع الإمام علي - ميدان الإسماعيلية
مصر الجديدة ت : ٢٧٤٠٨٣٤

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لا شك أن البخل من الآفات التي إن أصابت الإنسان فإنها تجري فيه مجرى الدم في العروق ، وتتغرّس في عظامه حتى النخاع فتتحول إلى جزء من تكوينه وطبعه ، ومع مرور الوقت يعرف الناس أن فلاناً بخيل أو مقتر أو شحيح فيبتعد عنه ندماؤه وأحباؤه وتهجره الصحبة والرفاق .. والبخيل شخص مريض وإن زعم غير ذلك بل إن البخيل يقص عليك كلاماً يعتبره هو فلسفة خالصة ولِمَ لا .. ولماذا لا تكون للبخل فلسفة يدافع عنها البخلاء ؟.. إن فلسفتهم في تقتيرهم غريبة وطريفة في ذات الوقت ، وهم يقلبون الأمور حتى تصاغ تبعاً لأهوائهم ومشاربهم الخاصة .. ولقد اعتبر البخل شيئاً مذموماً غير مستحب في المرء .. وقد قال رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : « إياكم والشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم والبخل جامع لمساوىء القلوب وهو زمام يقاد به إلى كل سوء » ..

ومن الطريف أن يلصق بهذاء الداء الخطير نوادر يتناقلها العامة والخاصة على حد سواء ، وهي تنتقل من جيل إلى جيل ويلمح المرء من خلال هذه النوادر بعض من حكمه وبعض من تسلية تتسلّى بها القلوب ، وهي أيضاً عبرات لكل ذي عقل يعي .. وقد قيل إن بخلاء العرب أربعة ـ وهم أكثر بالطبع ـ وهولاء البخلاء الأربعة هم الحطيئة وحميد الأرقط وأبو الأسود الدؤلي وخالد بن صفوان .. وقد حُكيت نوادر كثيرة عن هؤلاء البخلاء وعن غيرهم .. فقد قيل إن حميد الأرقط كان هجّاء لضيوفه كثير الذم لهم ، وقد نزل عليه ضيوف في أحد الأيام فأطعمهم تمراً ثم هجاهم بعد ذلك وقال إنهم

أكلوا التمر بنواه .. ومن نوادرهم أيضاً أن الجوع قد غلب على امرىء ذات يوم فمضى إلى دار أحدهم ليتغذى عنده ، فلما وصل إلى باب الدار أبصر غلامه فسأله عن سيده فقال الغلام : والله لن أدلك عليه إلا إن أعطيتني رغيفاً فولّى الرجل هارباً من فوره .. ومن نوادرهم أيضاً أنه روي عن بخيل أن ضيفاً قد طرق بابه ، وكان بين يدي البخيل خبز وإناء به عسل فسارع إلى رفع الخبز وبينما هو يرفع العسل دخل الضيف فكانت مفاجأة للبخيل لم يستطع تداركها ، وظن أن الضيف لن يأكل العسل بلا خبز إلا أن الضيف وافق على أكل العسل بلا خبز وراح يلعق العسل لعقاً بينما ينظر إليه البخيل بذعر وغيظ ولكنه لم ينتظر فصاح فيه : مهلاً يا أخي والله إنه يحرق القلب .. فقال الضيف : نعم .. صدقت ولكنه يحرق قلبك أنت .. وقد قال بخيل لخادمه : هات الطعام وأغلق الباب إلا أن الخادم الحصيف قال بخبث : هذا خطأ يا مولاي .. فإنما يقال : أغلق الباب وهات الطعام .. فسر منه سيده وأعتقه ..

إن هذه الطرف التي أوردناها على سبيل المثال تظهر أي اعوجاج قد أصاب طبيعة البخيل وتكوينه ، إن للنقود بريق وللذهب كذلك بريق والدرهم الفرد يجذب الدرهم ، وعندما تربو الأموال وتزداد تتحول هذه النفسية المريضة إلى حارسة لهذا المال وكانزة له ، وتنتهي بذلك وظيفة المال كوسيلة لإسعاد النفس وإرضائها .. ونحن لن نحاول سبر أغوار نفس البخيل وتحديد الأسباب التي أدت إلى هذا الاعوجاج فما كان هذا هدف كتابنا .. إنما الغرضُ من عرض هذا الكتاب ينسحب إلى شيئين . أولهما : إظهار الفلسفة التي يركن إليها البخلاء في مذهبهم وإظهار العبر منها .. أما الشيء الثاني فيكمن في التسرية عن النفس وتسريتها وتسليتها .. فنوادر البخلاء لا تخلو من ظرف وطرافة .. يقول الجاحظ عن كتابه : « البخلاء » .. ولك في هذا

الكتاب ثلاثة أشياء ؛ تبين حجة طريفة أو تعرف حيلة لطيفة أو استفادة نادرة عجيبة وأنت في ضحك منه إذا شئت وفي لهو إذا مللت الجد ..

هذا إذن كتاب الجاحظ : « البخلاء » وهو واحد من أشهر كتب العرب .. وقد جمع فيه كاتبه نوادر شتى وقصص لبخلاء العرب وهي نوادر لا تخلو من الفكاهة أو الطرافة .. والجاحظ هو أبو عثمان عمرو بن بحر وقد لُقب بالجاحظ .. ولد الجاحظ في البصرة وأخذ العلم من أساطين اللغة والثقافة والأدب في عصره .. وكتب الجاحظ الكثير من المؤلّفات في حياته حتى أُصيب بشلل نصفي في أواخر عمره ، فقضى أيامه الأخيرة بالبصرة حيث مات ويعتبر كتاب : « البخلاء » مع كتاب : « الحيوان » وكتاب : « البيان والتبيين » من أشهر كتبه على الإطلاق .. والآن يحق لنا أن نسأل عن كتاب : « البخلاء » ما هي قصته .. ؟..

كتاب « البخلاء » كتاب ضمّنه الجاحظ أخبار بخلاء عصره ممن عرفهم أو سمع عنهم وقد كتبه نزولاً عند رغبة أحد أصدقائه الذي سأله أن يفصل « نوادر البخلاء وطرف الأشحاء وما يجوز في ذلك من باب الهزل وما يجوز منه في باب الجد » وقد راح الجاحظ يتتبع ما كتب في هذا الباب وراح يتقصّى الأخبار ويقتنص نوادر أهل العلم والأدب في مجال البخل ، ويجمع ما يقع بين يديه من الملح والنوادر ويقلب النظر فيما تركه الحزامي والكندي وسهل بن هارون وغيرهم في تحليل نفسية البخلاء .. وقد جمع كل ذلك في كتاب كان خلاصة خبرته ومجموعة معلوماته وصوره لناحية البخل والاقتصاد في مجتمعه ، وانتهج فيه سبيل القصص والفكاهة والتهكم ناقداً الإسراف في حب الدرهم مطرئاً حكمة البخلاء في أساليب اقتصادهم ، مقدماً دروساً حية وعظات فكاهية ومظهراً ثقافة واسعة في التطلع إلى آفاق مختلفة .

يفتتح الجاحظ كتابه بنظرة مجملة في نفسية البخلاء وما هم عليه من حب

التمرية والظهور بغير الحقيقة إخفاء لعيوبهم وإغضاء عن نقائصهم ثم ما هم عليه من الفطنة لعيوب الناس ، فهم أبداً عين تنظر إلى الغير لتأخذ عليهم ما لا تأخذه على أصحابها ، وبعد ذلك يثبت الجاحظ رسالة سهل بن هارون في البخل وما ردَّ به على بني عمه الذين تنكروا لمذهبه في البخل ، ثم ينتقل الجاحظ إلى بخلائه ويفتتح السلسلة بأهل خراسان وإذا البخل فيهم طبع ثم يأتي إلى ذكر أهل البصرة من المجديين ، ويروي قصص زبيدة بن حميد الصيرفي وليلى الناعطية وأحمد بن خلف وخالد بن يزيد وغيرهم ممن شاعت أخبارهم .. ويثبت الجاحظ بعد ذلك رسالة أبي العاص إلى الثقفي في ذم البخل ومدح الكرم وجواب ابن التوأم على رسالة الثقفي في إظهار مفاسد البذل .

إن كتاب « البخلاء » للجاحظ يصور شريحة من الناس ليسوا وقفاً على عصر بعينه أو زمن بعينه .. فالبخل والشح لصيق ببعض الناس يعيش في طواياهم .. والحقيقة أن الجاحظ في كتابه حين صور شريحة البخلاء صورهم بملابسهم .. وبعاداتهم ، بما ألفوا عليه وتعوّدوه فكأنه ينقل جزء من التاريخ الجغرافي أو الجغرافيا التاريخية .. كل ذلك بلغة جاحظية تعكس في سماتها التفكهة والمداعبة حيناً والتهكم والسخرية حيناً آخر وكأنك سائر من هذا إلى ذاك ولكنك في النهاية ـ لا محالة ـ ظافر بحكمة عظيمة وعبرة ذات أثر عميق .. وهذا هو في الحقيقة هدفنا من شرح هذا الكتاب وعرضه وفقنا الله ونفع به ..

دكتور

سامي محمود

مذهبهم في البخل

وإنك لتسمع دفاعهم عن شحِّهم فيصيبك من الدهشة ما يصيبك ، ومن الغريب حقاً أن لهم منطقاً يصعب على المرء رده أو نقده .. تراهم يحدثونك عن الإسراف وهل يحب الله المسرفين ؟؟.. ثم يقنعونك بأن تستفيد بكل ما ملكت يداك أفضل استفادة وبأقل الممكن .. وما العيب في هذا .. إنه اقتصاد لا تشوبه شائبة .. وهكذا لا تكاد تمضي معهم حتى تظن أن الحق يسير في ركابهم ، وأنهم قوم قد عرفوا أمور الدنيا والحياة فأرادوا الأمن من شر المستقبل وعواظم الأحداث وهذه رسالة أحدهم وهو سهل بن هارون أبي محمد إلى بني عمه بعد أن ذموا مذهبه في البخل والشح .. وهو في رسالته يرد عليهم بمنطق ظاهره الحلاوة والصدق باطنه سفسطة لا تخدع لبيب .. وهو في بداية رسالته يشكو منهم لأنهم يعيبوه فيقول لهم :

إذا أردت أن ترى العيوب جمة فتأمل عيّاباً فإنه إنما يعيب بفضل ما فيه من العيب .. وأول العيب أن تعيب ما ليس بعيب .

إذن فهو يعتبر أن البخل ليس بعيب .. بل قد يعتبره فضلاً أو من عظيم الخصال .. لا بأس .. لنمضي إذن مع سهل بن هارون ونرى ردّه فيما عيَّبوه فيه ..

لقد عبتم قولي من يسرف في إنفاق ما يملكه من الأشياء الرخيصة سوف يسرف كذلك في إنفاق ما يملكه من الغالي النفيس .. فماء الوضوء يكفي المرء منه مقدار قبضة اليد أو أقل من ملء كوب الماء بقليل لكن الإنسان يسرف في استعمال الماء لأنه متوفر ورخيص ، وأنا أوزع هذا القدر الضئيل من الماء على أعضاء الوضوء مني بمقدار فتكفي ويتبقى من الماء بقية كذلك .. إنني متى

عملت ذلك في المتوفر الرخيص كالماء عرفت قيمة الغالي وأهميته فأمسكته لا أسرف فيه .. وقد قال الحسن : إن الإنسان يسرف ببذخ في الماء والكلام فكلاهما متوفر ورخيص رغم أهمية كل منهما في حياة الإنسان ودنياه ..

ثم إنكم قد عبتم قولي لغلامي أن يزيد في مرق اللحم (الشوربة) وأن يزيد في فترة نضج اللحم .. أقول لكم وما العيب في ذلك .. أليس في مرق اللحم يذوب الدسم والدهن ؟ ألا تذكروا معي قول رسول الله ﷺ :« إذا طبختم لحماً فزيدوا في الماء فإن لم يصب أحدكم لحماً أصاب مرقاً .. » .

وقد عبتم ما قمت به من تقصير نعل الحذاء وتقوية جلدته وترقيعه .. ذلك بالرغم من أن النعل القصير دليل التواضع كما أنه يقي الحذاء ويحفظه ويجعل عمره طويلاً .. وقد كان رسول الله ﷺ يفعل ذلك وكان عليه الصلاة والسلام يرقّع ثوبه .. وقد قالوا : لا جديد لمن لا يلبس القديم أو المرقع من القماش .. وكان زياد قد أرسل مبعوثاً أو رسولاً ليبحث له عن رجل يكون لبقاً عاقلاً ومحدّثاً بارعاً وبعد فترة من الوقت جاء الرسول مصطحباً الرجل .. ودار هذا الحوار بين زياد ورسوله ..

زياد : هل كنت تعرف الرجل ؟ ..

الرسول : لا .. لقد كانت هذه أول مرة أراه فيها .

زياد : هل تكلمت معه وتناقشت حتى تعرف رجاحة عقله وثقافته ؟ ..

الرسول : .. لا ..

زياد (باندهاش) : إذن فلماذا اخترته هو بالذات دون سائر الناس ؟ ..

الرسول : اليوم كما تعرف شديد الحرارة وقد كنت أتعرّف عقول الناس بملابسهم وطعامهم .. وقد رأيت كل الناس قد ارتدوا ملابس جديدة لا تتناسب

وحرارة الجو بينما كان هذا الرجل يلبس ملابس خشنة قديمة فعرفت فيه الحزم ورجاحة العقل ..

ويمضي سهل بن هارون بهذا المنطق الغريب فيقول : وهكذا يكون ترقيع الثوب يجمع بين إصلاحه والتواضع وخلاف ذلك يجمع مع الإسراف التكبر وبالطبع من تواضع لله رفعه ..

يقول سهل لقد عبتم كذلك قولي : إن الإنسان العاقل لا يغتر حين يبلغ من العمر أرذله فتصيبه الشيخوخة وتخور قواه وتضعف ؛ أن يكون مسرفاً مضيعاً للمال وأن تستولى عليه شهوات الدنيا فيصرف ذات اليمين وذات الشمال حتى يفقد ماله وتضيع أملاكه فلعل عمر هذا الإنسان طويلاً .. لعله معمراً ثم ماذا يفعل إذا أصابته نوائب الدهر وصروف الزمن .. ألم يقل عمرو بن العاص : « اعمل لدنياك عمل من يعيش أبداً واعمل لآخرتك عمل من يموت غداً » ..

ثم إنكم عبتم ما زعمته بأن المال الذي جاء بلا جهد كمال القمار والميراث وما تجود به الملوك هو أسرع في تبذيره والإسراف فيه لأنه جاء بلا تعب ولا نصب ، أما المال الذي يأتي بعد العمل والغنى الذي يحصل عليه الإنسان بعد عناء السنوات الطوال وجهد الليالي فإنه أحق بأن يحفظ ولا يبذر فيه بل أن يُنفق بقدر وحساب .. وقلت : إن الشخص الذي لا يعرف للغنى قدر فقد أضاع ماله وطواه الفقر والذل ..

وعندما قلت : إن الكسب الحلال يجب أن ينفق في الموضع الحلال عبتم قولي هذا وقد قال معاوية : « لم أر إسرافاً وتبذيراً إلا وجانبه حق يضيع » كما قال الحسن : « إذا أردتم أن تعرفوا كيف يكسب شخص ما ماله فانظروا في أي شيء ينفقه فإن الخبيث ينفق في الإسراف والتبذير » .. وقد زعمت لكم أيضاً أن الغنى يسكر مثله مثل الخمر بل هو أشد منها ومن غاب في سكر الغنى

فقد أضاعه ، فالغني يجب ألا يـأمن الفقر فينفق ويـسرف بلا حـساب لأنـه إن فعل ذلك فقد ضيع الغنى وضاع ماله منه وأهملته ثروته .. وقد قـال زيـد بن جبلة : « ليـس أحد أفقر من غني أمن الفقر » ..

وحين قلت إنني أفضل المـال على العلم عبتم قولي هـذا .. وإنني أقول أليـس العلماء بحاجة إلى المال ؟.. بل قد سئل أحـدهم .. العلمـاء أفضل أم الأغنيـاء ؟ فقال : العلماء .. فقيل له : لمـاذا إذن يقصـد العلمـاء دار الأغنيـاء ولا يحـدث العكس ؟.. فقال : إن المال يحتاجه الجميع ويسـعون إليه أمـا العلم فـإن البعض فيه يغني عن الكل ..

وقد قلت إن فضل الغنى على معاش الإنسان وطعـامـه مثل فضل الآلـة أو الماكينة في المنزل فإن أراد الإنسـان أن يستعملهـا استُعملت وإذا لم يرد تُركت وكانت عـدة .. ولم يعجبكم قولي هـذا .. وإنني أذكركم بقـول الحُصين بن المنـذر حين قـال : لكم أتمنى لـو كان لي مـالاً كثيراً وذهبـاً مقنطراً لا أستفيـد بـه .. فتعجَّب الناس من قوله وسـألوه : إذن مـا ينفعـك بـه ؟.. قـال ابن المنـذر : لكثرة الناس الذين سيخدمونني بـسببه وطمعاً فيه .. إذن فـالغنى في حـد ذاتـه شيء يجعل الناس يلتفون حوله ويخدمون صاحبه طمعاً ورغبة ..

وهكذا تجد أن منطقهم يجذبك ويؤثر فيك وقد تصدقه ولكنـك لا محـالـة ستدرك مقدار زعمهم ، وأن مقصدهم في حقيقته يهدف إلى اكتنـاز المـال ووضع المليم على المليم .. ويمكننـا إدراك أن هـذا المنطـق هـو دستـور حيـاتهم ولسـان حالهم فهم لا يحيدون عنه وكأنهم قد فُطروا عليه ..

نوادر أهل خرسان في البخل

يصل بنا حديث أهل البخل إلى خرسان وإلى جماعة « مرو » منهم .. لقد كانت لهم شهرة في الشح والبخل لا تُبارى .. وعن نوادرهم قيل الكثير ..

يقول الواحد منهم للضيف إذا آتاه أو إذا أطال الجلوس : هل تغذيت اليوم ؟.. فإن قال الضيف : نعم .. قال له : لولا أنك تغذيت لأطعمتك طعاماً طيباً ، وإن قال الضيف : لا .. قال له : لو كنت تغذيت لسقيتك شراباً طيباً .. فيمضي الضيف ولم يأكل طعاماً أو يتناول شراباً ..

وكان ضيفاً في زيارة لواحد من أهل مرو .. وقام يتوضأ بكوز من الخزف فقال له صاحب البيت : سبحان الله تتوضأ بالماء العذب .. وعندك البئر .. فقال الزائر : بل هو من ماء البئر .. فصرخ صاحب البيت : إنك بذلك تفسد علينا كوزنا بملوحة ماء البئر .. فاحتار الزائر ماذا يفعل بالضبط ..

يقول « ثمامة » : إنه قد رأى الديك في كل بلد يلقط الحب بمنقاره ثم يلفظ ذلك الحب أمام دجاجه إلا الديكة في مرو فكانت تسلب الدجاج ما في مناقيرها من حب .. وكأن بخل أهل البلد قد صار سمة لكل ما فيها من طير وحيوان وإنسان ..

وفي حديث لأحمد بن راشد قال : كنت عند شيخ من أهل مرو وكان للشيخ صبي صغير يلعب أمامه فسألت الصبي بخبث : أطعمني من خبزكم . فقال الصبي : إن خبزنا مر .. فقلت للصبي : إذن فاسقني ماءكم .. قال الصبي : لا فماؤنا مالح .. وأخذت أطلب من الصبي أشياء وأقول له : هات وهات والصبي يفسد كل ما أطلبه ويوبخه حتى لم أجد ما أطلبه .. وعندئذ ضحك أبوه وقال : ماذا نعمل .. إن الأطفال يرضعون البخل مع لبن أمهاتهم ،

فكأن البخل طبع فيهم مغروس في عظامهم يجري منهم مجرى الدماء في العروق ..

ومن نوادر أهل مرو ما رواه خاقان بن صبيح إذ قال : كنت عند واحد من أهل مرو ليلاً فرأيته قد أتى بسرجة وهي المصباح ينار بالدهن أو بالزيت ، وكان في المصباح فتيلة رفيعة وهزيلة وقد علّق فيها عود رفيع من الخشب مربوط بخيط .. فسألته عن سر ربط العود في عمود الفتيلة فقال : هذا العود يتشرب الدهن عندما نسوي به الفتيلة ثم نحتاج لهذا العود المتشرب للدهن في الإنارة بعد ذلك ، فإذا لم نضع العود ضاع هذا الدهن هباء والدهن الذي يضيع في شهر يكفي لإنارة ليلة بأكملها .. وبينما أنا أتعجب منده شاً ، حدث ما هو أغرب فقد جاء شيخ آخر من أهل « مرو » وعندما شاهد السرجة ومعلق فيها عود الخشب قال لصاحب البيت : لله أنت .. أتضع عود من الخشب ألا تعلم أن الريح والشمس يعملان كذلك على تجفيف الدهن والزيت .. ألا دللتك على ما هو أبقى وأنفع .. عليك بتغيير عود الخشب إلى إبرة رفيعة من الحديد فإن لها فوائد تفوق عود الخشب .. فالإبرة من الحديد وهي ملساء فإذا سويت به الفتيلة فربما تعلّقت بها شعرة من الفتيلة لا تضيع كما أن الإبرة ملساء ولا تمتص الدهن فلا يضيع .. وهنا كان تعجبي يفوق دهشتي ..

ومن نوادرهم في ما يخص المصابيح ومسارج الإنارة أن شيخاً منهم هو عبد الله المروزي ، قد دخل على واحد من أهل خرسان فوجده ينير البيت بسرجة من الخزف فدار بينهما هذا الحوار :

عبد الله : تراني ماذا أفعل معك ؟ عاتبتك على أمر سرجة من الحجارة فأحضرت أنت واحدة من الخزف !. ألست تعلم أن الحجارة والخزف يتشربان الدهن الذي تنير به حتى يضيع دون فائدة ..

صاحب البيت : لقد عالجت هذا الأمر .. وأرسلت مرجتي إلى دهّان (بائع زيت) لكي يلقيها في الزيت شهراً كاملاً حتى تشبعت به فلا تتشرب زيت الإنارة ..

عبد الله : وهل تظن أن الأمر انتهى بذلك ؟.. إن النار في طرف الفتيلة تحرق الدهن وتنشف الفتيلة حتى يُسْقى مرة أخرى وهكذا .. ولو قست ما يضيع من الدهن بذلك لوجدته كثيراً جداً .. إنك بذلك تطعم النار ومن حيث أردت الإنارة .. ومن أطعم النار جعله الله يوم القيامة طعاماً للنار ..

صاحب البيت : إذن ماذا أفعل .. بالله خبرني ؟ ..

عبد الله : تتخذ قنديلاً من الزجاج .. فالزجاج لا يرشح الدهن ولا يتشربه وهو أيضاً شفاف يزيد من الإضاءة ويحفظ الدهن بما تقوم به زجاجة المصباح .. واسمع معي قول الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم : ﴿ **اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ، المِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ، الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَةٍ وَلا غَرْبِيَةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ، نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ** ﴾ ..

ومن عجائب نوادرهم أن رجلاً من مرو كان إذا زار العراق للتجارة فينزل على رجل من أهل العراق فيكرمه هذا الرجل ويضيّفه ويزيد في الحفاوة به حتى يكفيه مؤونته .. وكان الرجل من مرو يلح على العراقي أن يزوره في بلده فيردّ له صنيعه ويكرمه مثلما أكرمه .. وبعد فترة من الزمن مر العراقي على « مرو » وذهب من فوره إلى بيت الرجل حتى يستضيفه فلما قدم إليه وجده مع بعض من أصحابه وكان العراقي في ثياب سفره وعليه عمامته وقلنسوته حتى إذا ما رآه العراقي أقدم إليه يعانقه إلا أن الرجل من أهل مرو

أظهر عدم معرفته به وكأنه لم يقابله من قبل ، فقال العراقي لنفسه : ربما لأنني أضع على وجهي غطاء فرفع الغطاء وعاد يذكّره بما كان منه عندما زاره في العراق بنفسه ، إلا أن الرجل أنكره أيضاً وأبدى عدم معرفته به .. فقال العراقي : ربما هي القلنسوة فأخلعها كذلك وعندما خلعها وأخذ يذكّره بنفسه .. أنكره الرجل من أهل مرو كذلك .. فقال العراقي لنفسه : إذن هي العمامة فأخلعها وخلعها وعاد يذكّر الرجل بنفسه .. وعندها أدرك الرجل من أهل مرو أنه لم يعد على العراقي شيء حتى يخلعه فقال له بقرف شديد : والله لو خرجت من جلدك ما عرفتك ..

ومن نوادرهم أن أبا إسحاق إبراهيم كان له جار من خرسان وأراد في يوم أن يستعير منه المقلاة فقال له الرجل : كانت لنا مقلاة ولكنها سُرقت .. فاستعار أبو إسحاق المقلاة من جار آخر وعندما سمع الخرساني صوت شواء اللحم وشم رائحة الشواء جاء لأبي إسحاق وهو في قمة غضبه .. وقال له : لله أنت .. لماذا لم تخبرني أن المقلاة تريدها لشواء اللحم وليس لشواء شيء آخر لأن أي شيء آخر غير اللحم يحرق الحديد ويفسد المقلاة إنما اللحم وما فيه من دسم يترك رائحته في المقلاة ويترك طعمه كذلك فيجعلها أحسن حالاً ..

يقول أبو إسحاق : كنا مدعوون عند جارٍ لنا وكان على منضدة الطعام بلحاً ودسماً ، وبينما نحن نأكل وجدنا أن أحدنا وكان خرساني يقطر السمن على المنضدة ويزيد في لقمته مغموسة دسماً حتى تفيض على المنضدة .. فتعجبت وسألت من بجواري فقال لي : ألا عرفت علته ؟!.. قلت : لا .. قال : إن المنضدة منضدته وهو يريد أن يدسمها ليبقي رائحة اللحم والدسم فيها .. لقد طلّق هذا الخرساني امرأته وهي أم أولاده لأنه رآها غسلت هذه المنضدة بالماء الساخن فقال لها : لقد مسحت كل الدسم من خشبها ..

ومما يحكى عن أهل خرسان أن شيخاً منهم وكان معروفاً عنه استقامته

وبعده عن الفساد والرشوة والحكم بالهوى إلا أنه كان بخيلاً شحيحاً مثله مثل بقية أهل خرسان ، فكان لا يأكل إلا ما هو ضروري ويشرب ما لابد منه وكان من عادة هذا الشيخ أن يخرج كل يوم جمعة وحده ومعه « لفة » أو منديلاً به لحم وجبن وزيتون وملح وبيض ثم يمضي بهذه الصرة حتى يدخل أحد البساتين البعيدة عن العيون ويجلس لكي يأكل ، وبعد أن يفرغ من طعامه يعطي للبستاني درهماً لكي يعطيه بعضاً من فاكهة البستان عنباً كان أو بلحاً فيأكل كل هذا ثم ينام حتى ظهر الجمعة فيقوم ليغتسل ويذهب للمسجد ليصلي ، وبينما هو في أحد أيام الجمع وكان جالساً جلسته يأكل ما يحتويه منديله إذ مر عليه رجل فألقى الرجل على شيخنا السلام فردَّ الشيخ السلام ، فما كان من الرجل إلا أن اعتدل ليجلس إلى الشيخ يقاسمه طعامه فقال له الشيخ :

ـ ما بالك ماذا تود أن تفعل ؟.. فقال الرجل :

ـ أريد أن أتغذى ..

ـ فقال الشيخ : لماذا ؟ .. ورد الرجل :

ـ ألم تدعوني للغذاء .. ألم تردَّ عليَّ سلامي .. فقال الشيخ :

ـ أي أحمق أنت والله لو كنت أعرف أنك تريد الغذاء ما رددت عليك سلاماً .. لقد سلَّمت أنت فرددت أنا السلام وهكذا يكون قول بقول ، أما أن يكون قول بفعل وقول بأكل فهذا ليس من العدل بل هو حرام .. حرام ..

وهناك نادرة أخرى تشبه نادرة القول بالقول والقول بالأكل هذه .. كان أحد ولاة الفرس جالساً حين أتى إليه أحد الشعراء وأخذ الشاعر يلقي عليه قصائد المدح والمجد .. فلما فرغ الشاعر قل له الوالي : لقد أحسنت وطلب من كاتبه أن يمنحه عشرة آلاف درهم ففرح الشاعر جداً فلما رآه الوالي بكل هذا

السرور أمر كاتبه أن يزيده إلى عشرين ألف درهم فكاد الشاعر أن يطير فرحاً فلما رأى منه الوالي ذلك .. قال له : لأنك قد زدت في مدحي فإنني أزيد جائزتك وأمر بمنحه أربعين ألف درهم وكاد يغمى على الشاعر من شدة الفرح ، ولما خرج الشاعر أقبل كاتب الوالي عليه وقال له : كيف يا سيدي تمنح هذا الشاعر أربعين ألف درهم .. أنت لو منحته أربعين درهم لفرح بها وكفّته .. فقال له الوالي : ومن سيعطيه شيئاً ؟.. قال الكاتب : ألم تأمرني .. قال له الوالي : لا .. لن نعطيه شيئاً .. لقد سرَّنا بكلام فسررناه بالكلام .. ألم يكذب حين قال إنني كالقمر ولساني كالسيف وشدتي كالأسد .. ألا يعتبر في ذلك كاذباً منافقاً .. إذن فنحن نكافىء كذبه بكذب وقوله بقول .. لقد سرَّنا فسررناه وانتهى الأمر ..

ومن معتقداتهم أنهم كانوا لا يرجون من وراء العوض أو الخلف شيئاً ولا يعتبرون أن الحسنة بعشرة أمثالها بل كانوا يعتبرون أن إتيان الشخص بالصدقة والزكاة مدعاة للفقر والحاجة وأن اليأس خير وقاية من هذا الإيمان العقيم .. وكان رجل من أهل مرو يسمع الحسن وهو يحث الناس على عمل المعروف والصدقة وكان الحسن يقول : ما نقص مال قط من زكاة .. فما كان من الرجل إلا أن تصدَّق بماله كله حتى أصبح فقيراً وانتظر أن يبلغ ماله عشرة أمثال ولكنه لم ير شيئاً فذهب للحسن يعاتبه ويندب حظه وقال له والله إن اللص كان يفعل بي أقل ما فعلت أنت ..

وكان من عادتهم في مرو أنهم كان يلبسون الأحذية ستة شهور فقط من السنة ، وكانوا خلال هذه الشهور الستة يمشون ثلاثة شهور على أعقاب الأحذية أي : على كعوبها أما الثلاثة شهور الأخرى فكانوا يمشون على صدور أحذيتهم أي مقدمتها ، فكأنهم بذلك لم يلبسوا أحذيتهم سوى ثلاثة شهور فقط وذلك حتى لا تتلف أو تثقب .. وكان واحد منهم لا يلبس حذاءه خلال جمع

التمر وكل ما له نوى لأن النوى اليابس كلت يلقى في الطرقات وكان يفسد حذاءه من مشيه عليه .. هكذا كانوا ولله في خلقه شئون .. والعياذ بالله ..

حكاية أهل البصرة من المسجديين ..

من هم المسجديين ؟.. هم أناس يجتمعون في المسجد يتناقشون في أمور دنياهم ومعاشهم ويتعرفون أهم طرق الاقتصاد في النفقة والشح في جمع المال ، فكان كل واحد منهم يستفيد بتجارب غيره في توفير المال وتضييق الحال ..

وبينما هم جلوس قال شيخ منهم : كما تعلمون فإن ماء بئرنا مالح لا يمكن شربه كما أن الخيل والإبل لا ترضى شربه كذلك وهو لا ينفع لزرع أو ريّ كما أن النهر بعيد ويكلفنا مشقة كبيرة حتى نحصل منه على الماء العذب .. وكنا نسقي الإبل والحمير خليط من الماء العذب وماء البئر المالح فأثّر هذا الماء الخليط في البهائم وأعياها ، فلم يكن أمامنا سوى أن نسقيها ونغسلها من الماء العذب الذي كان يكلفنا كثيراً من المشقة والعناء حتى نحصل عليه من النهر البعيد وأخيراً وفقني الله إلى حيلة توفر علينا هذا كله .. أتدرون ما هي ؟.. لقد جعلت في المكان الذي نشرب منه ونغتسل فيه للوضوء أو الاستحمام .. جعلت في هذا المكان حفرة ملستها وقويتها حتى كأنها الإناء المنحوت في الصخر ، فكان الماء الذي يتبقى منا بعد الاغتسال ينزل في هذه الحفرة ويتجمع فيشربَ منه البهائم دون أن يصيبها منه شيء فكأننا بذلك وفرنا مجهوداً ومشقة وضربنا عصفورين بحجر واحد .

وإذ هم معجبون بهذه الطريقة في توفير الماء العذب .. سألهم شيخ منهم : تراكم تعرفون مريم الصناع ؟... لقد كانت من أهل الاقتصاد وجمع القرش على القرش .. قالوا : حدّثنا عنها وعن نوادرها .. قال الشيخ : نوادرها كثيرة وسأحدثكم عن نادرة واحدة لكي تدركوا مدى براعتها في الاقتصاد وجمع المال وتيسير الحال .. لقد زوّجت مريم هذه ابنتها وعمرها اثنتى عشرة سنة فجمّلتها بالذهب والفضة وألبستها الحرير وجهزتها بأحسن ما يكون تجهيز العروس حتى

رفعتها في أعين أقارب زوجها وخلانه .. فتعجب زوج مريم وكان رجلاً فقيراً وقال لها : من أين كل هذا يا مريم ؟.. فقالت له : هو من عند الله .. قال زوجها وهو لا يزال في تعجبه واندهاشه : والله ما عرفت أنك ورثت شيئاً .. ولا أظن إلا أنك قد عثرت على كنز .. فقالت له : ليس هناك كنز أو شيء .. إنني منذ ولدت ابنتنا وأنا أدخر قبضة يدٍ من دقيق الخبيز وأنت تعلم أننا نخبز كل يوم مرة وهكذا حتى يجتمع عندي قدر مناسب من الدقيق أبيعه وأدخر ثمنه لابنتي .. حتى إذا ما كبرت وجدت عندي ما يمكنني من أن أزفها إلى زوجها في أبهى حلة وأجمل ثياب .. فحمد زوجها صنيعها وحسن تصرفها .

هذه هي مريم الصناع وما فعلت .. أترانا نندهش ؟.. لماذا ؟.. أليس كل كبير أصله صغير والثروة التي تقدر بالملايين هي قرش وضع بجانب قرش ؟.. المهم عودة إلى المجتمعين في المسجد من المسجدين ..

وغلبهم الضحك والسمر وجذبهم ما في الأحاديث من جدة وفائدة .. حتى قال أحدهم : إذن فلتسمعوا قصتي .. كنت أعاني من السعال أياماً وكانت (الكحة) من شدتها تكاد تؤرقني الليل والنهار .. فأشار علي بعض الناس بأن أشرب عصير التفاح ، بينما قال لي آخرون بأن أتناول الحلوى المصنوعة من السكر ودهن اللوز ، ولكنني لم أسمع لنصيحتهم لكثرة تكاليف ما أشاروا به وغلو سعره حتى قال لي بعضهم : عليك إذن بماء النخالة (الردة) فإنها تشفيك .. ولم أكن أعلم أي خير يأتي من وراء النخالة هذه .. قالوا جميعاً بفضول شديد : إذن احك لنا أي خير وجدته وراء النخالة .. قال : عندما تناولت من ماء النخالة وكان ساخناً وجدته طيب أزال عني نوبات السعال إلا أنه في نفس الوقت جعلني لا أشتهي الطعام ولم أجوع حتى عصر اليوم التالي .. وهنا قلت لزوجتي لماذا لا تطبخي لأطفالنا من ماء النخالة ؟... إنها تشفي داء الصدر وتمنع جوع الصغار وتمنع شهيتهم للطعام وطلبهم له ثم أنك

بعد أن يشربوا الماء تجففين النخالة مرة أخرى فتعود كما كانت وتغلى مرة ثانية فنوفر من ذلك الكثير ..

سبحان الله .. كل هذا من وصفة سعال .. تصلح الصحة بل والمعاش كذلك .. ولماذا لا يستثمر المرض ؟.. ففي الدواء والداء .. كلاهما فيه الخير وسبحان من له الدوام ..

وهكذا نمضي مع هؤلاء القوم وتجاربهم في التقتير والتقدير ونحن نعرف من اجتماعهم أن يستفيد كلٌ بتجارب الآخرين في اقتصاد معاشه ودنياه .. قال شيخ منهم : سمعتم عن معاذة العنبرية ؟.. قالوا في صوت واحد : لا .. وما شأن هذه المرأة من أحاديثنا في الاقتصاد والشح ؟.. قال الشيخ : إنها غلبت الرجال في الاستفادة بكل شيء .. تكاد لا يفوتها شيء دون أن تستفيد به وتجرد ما فيه من خير ونفع .. وتعجَّب الرجال وسألوا الشيخ أن يزيدهم من أمر هذه المرأة .. قال الشيخ : أهداها ابن عم لها منذ سنة خروف .. ومررت عليها فوجدتها حزينة تطويها الحيرة ويضنيها اليأس .. فسألتها عن حالها وسبب حزنها فقالت : أنا امرأة مسكينة وكما تعلم أنا أرملة لا زوج لي يقوم عليه معاشي .. وأنا أعرف أن هذا الخروف جعله الله كله فائدة وليس فيه ما يمكن أن نلقيه دون أن ينفعنا في شيء ، وأنا لا أحب أن أضيع منه القليل حتى لا يضيع معه الكثير .. فأما قرون الخروف فإنني أستخدمها خفاف يُمَرَّ في السقف لكي أعلق فيه قفة الخبز أو كيس الطعام فلا تناله الحشرات فتفسده .. وأما المصران فإنني أصنع بها أوتار أضعها في آلة تنجيد القطن وتهذيبه ، أما العظام وكل صلب من جسم الخروف فإنه يكسر بعد أن يزال عنه اللحم ويطبخ ، فأما الدسم والشحم فيطفو على السطح أستخدمه في إنارة المصباح وبعضه ينفع كالسمن في صنع الطعام .. أما ما تبقى من العظم فإنها تستخدم كوقود للنار والناس لم تعرف وقوداً للنار خيراً من العظام فإن نارها

صافية لا دخان لها .. والجلد يصنع منه جراب ومنافع أخرى والصوف له فوائد كثرة كثيرة معروفة واللحم أمره معروف .. ولكن ما يحيّرني ويدفع بي إلى هاوية الحزن والأسى هو الانتفاع بالدم والاستفادة به .. وإنني أعرف أن الله حرَّم من الدم المسفوح أكله وشربه ولكنَّه سبحانه لم يحرم ما دون ذلك من الانتفاع بالدم وأنا لا أعرف له فائدة حتى الآن وهذا ما يحزنني .. يقول الشيخ : وفجأة رأيتها وقد تهلل وجهها فرحاً وذهبت عنها حيرتها فسألتها عن سر فرحتها فقالت : لقد اهتديت إلى طريقة للانتفاع بالدم .. إن عندي قدوراً وأواني فخارية .. وهذه الأواني مصنوعة بالشام وقد علمت أن تلطيخ هذه الأواني بالدم يزيد من قوتها وتحملها .. ثم قالت معاذة : والآن الحمد لله فقد استرحت لأن كل شيء قد وضع في موضعه ولم يذهب شيء من الخروف ولم أستفد به .. يقول الشيخ : ثم قابلت معاذة بعد ستة شهور من هذا الحديث فسألتها : كيف حال لحم الخروف يا معاذة ؟.. فقالت متعجبة : لحم الخروف ..لم يأت وقت الانتفاع باللحم بعد .. مازلت أنتفع بالشحم والدهن والعظم حتى اليوم ولم يأت وقت اللحم بعد .. لكل شيء موعد أيها الشيخ .. فتعجب القوم من تدبير معاذة وحكمتها في تسيير أمور معاشها واقتصادها ..

نوادر زبيدة بن حميد في البخل

لقد كان ظنُّنا أن زبيدة هذا امرأة .. بيد أن الجاحظ أراد بها رجلاً .. المهم أن لزبيدة من النوادرِ ما يفوق الدهشة من كون اسمه لرجل أو امرأة ..

استلف زبيدة من دكان بقال بجواره درهمين وأربع كيلات من الشعير وبعد ستة أشهر أعطى زبيدة دينه للبقال ولكنه لم يعطه الدرهمين والأربع كيلات من الشعير بل أعطاه درهمين وثلاث كيلات فقط .. فاغتاظ البقال وقال له : حرام عليك .. لقد أقرضتك درهمين وأربع كيلات لا ثلاثة وأنا بقال مسكين أعيش من تعبي وعملي ولا أملك مالاً .. وأنت تملك مائة ألف دينار وتطمع في كيلة شعير .. فقال له زبيدة : يا مجنون .. أسلفتني في الصيف ورديت ديني في الشتاء وثلاث كيلات من الشعير في الشتاء ندية تزن أكثر من أربع كيلات من الشعير في الصيف يابسة وجافة .. أليس هذا صحيح ؟.. ويا سبحان الله ..

ونمضي مع نوادر زبيدة .. فقد دخل عليه صاحب له في داره فوجده يضرب خدمه ضرباً مبرحاً .. فقال يعاتبه : لماذا كل هذا الضرب يا زبيدة ؟.. هؤلاء خدم محتاجين .. قال زبيدة : إن الخدم الملاعيين قد أكلوا كل ما عندي من الشعير .. تعجب صاحبه .. الشعير !.. كيف يأكل هؤلاء الخدم الشعير ؟.. لابد أن في الأمر سراً .. خرج صاحبه وقابل رئيس الخدم وسأله بمعاتباً : كيف تأكلون شعير الرجل ؟ قال الرجل وهو يئن من الجوع : والله لا أقدر أن أكلمك وأنا واقف من تعب الجوع ؟.. جلس الرجل ثم قال وهو لا يزال يتوجع من ألم الجوع : ما لنا ومال الشعير وهل يشبع الشعير ..

وكان زبيدة يصيح على خدامه إذا ما أتاه ضيوف لكي يجهزوا الماء ويبردوه ويصبوه في كؤوس ذات أشكال جميلة فكان الضيوف يسخرون منه ويقولون :

يا زبيدة نحن إلى تجهيز الخبز وتجميل الطعام أحوج ..

ومن نوادر زبيدة الطريفة أنه في أحد الأيام شرب من الخمر حتى سكر ، وعندما اشتد به السكر أهدى إلى أحد أصحابه قفطاناً من جلابيبه الجدد ، وعندما أفاق من سكره خاف أن يرتدي صاحبه القفطان ويعلم الناس أنه هدية من زبيدة فيطمعون فيه ويتكاثرون عليه ، فذهب من فوره إلى صاحبه طالباً منه القفطان قائلاً له : يا أخي إن هبة السكران وشراءه وبيعه وصدقته وطلاقه لا تجوز فرد لي قفطاني .. كما أنني أكره أن يشكر الناس صنيعي وينسبون هذا الفعل الكريم إلى السكر .. فأنت إذا ما أعطيتني قفطاني فإنني أعيده لك وأنا يقظ وعن طيب خاطر .. إلا أن صاحبه الذي كان يعرفه جيداً والذي واتته المقادير بهدية من ذلك البخيل الشديد الشح ، وكان يعرف جيداً أنه سيحاول أن يسترد قفطانه بعد أن يفيق من سكره .. قال له : والله يا أخي لقد خفت أن تطالبني به لذلك فقد أعطيته لزوجتي بعد أن قصَّرنا أكمام القفطان وأصلحنا منه كثيراً حتى يليق بامرأتي لتلبسه ..

وكاد زبيدة يموت بغيظه وحنقه .. إلا أنه لم يستسلم وقال لصاحبه وهو يكاد يموت كمداً .. إذن أعطه لي فهو ينفع زوجتي كما نفع امرأتك .. إلا أن صاحبه قال له : لقد أرسلناه إلى الصباغ لكي يغيّر لونه فاذهب إليه وخذه منه .. قال زبيدة وقلبه يكاد يقف : ولكنني لم أعطه له .. وهنا أدرك زبيدة أنه قد وقع وضاع عليه قفطانه الذي أعطاه في لحظة سكر ، أخذ يهمهم إلى نفسه وهو يردد حديث رسول الله ﷺ : « جُمع الشر كله في بيت وأُغلق عليه فكان مفتاحه السكر » ..

حكاية ليلى الناعطية .. وحكايات في البخل

قيل إن المرأة متطرفة في عواطفها ؛ فهي إن أحبت كان حبها جنوناً وإن كرهت كان كرهها ناراً وحقداً وكيداً ، بيد أنها كذلك في جمع المال فالنساء معظمهن مسرف وقلما تجد امرأة معتدلة في نفقاتها أو نفقات منزلها .. إلا أن المرأة التي على النقيض من ذلك ، أي هذه الشحيحة البخيلة فإنها تفوق الرجال في بخلها وشحها ولا بأس هنا من أن نلمح التطرف بعينه .. وهذه واحدة من هذا النوع .. ليلى الناعطية .. وهي امرأة تنتمي للمسلمين الشيعة .. كانت ليلى هذه ترقّع جلبابها ثم تلبسه سنوات طوال حتى اختفى الجلباب الأصلي وأصبح الثوب كله من الرقاع ، وكانت لا تلبس إلا الملابس المرقعة ومن الغريب أنها كانت لا تخجل من ذلك بل تقول : إنني أرقع الخرق وخرق الخرق وألبسها ..

يقول الجاحظ : كنت سائراً مع بعض من صحبي نتحادث وإذ نحن نسير إذ قابلنا وليد القرشي فما كان منه إلا أن سار معنا حتى وجدنا فناء يحيطه سور عال يحجب الشمس ، وكان اليوم حاراً شديد الحرارة فلما أحسسنا بالظل والنسمة طال بنا الحديث وتشعب بنا الكلام فما شعرنا إلا والنهار قد انتصف وقد أصبح الحر لا يطاق .. فقلت : كيف لنا بأن نرجع اليوم والشمس تحرق رؤوسنا والرأي أن نذهب إلى دار الوليد فنستريح لغروب الشمس ونأكل ما عنده .. كان هذا والوليد يسمع ما أقول وقد استبد به الغيظ فقال محتداً صارخاً : والله حرام ما تقوله : إنك تهزل لا شك .. فقلت : ليس الأمر هزءاً بل هو ضرورة ألا ترى لفح الشمس ولهيب الصحراء والمدينة منا بعيدة .. فازداد غيظه اشتعالاً ونظر إلينا نظرة غاضب ثم تركنا دون سلام أو كلام ..

وكان جبل ـ وهذ اسمه ـ قد خرج ليلاً ليقضي حاجة له إلا أنه خاف

الطريق وهو موحش ، فقد يقابله لص أو قاطع طريق وبينما هو يسير فكر في الذهاب إلى منزل أبي مازن وكان قريباً منه .. وأبو مازن هذا كان من أبخل الناس .. المهم أنه طرق بابه وهو اثق تماماً من أنه لابد أن يفتح له الباب لأن طرقه للباب كان طرق من لا يشكو جوعاً أو عطشاً أو يسأل حاجة وكان همّ « جبل » أن يبات ليلته عند أبي مازن حتى الصباح الباكر فينهض من فوره ويترك المنزل .. سمع أبو مازن طرقات الباب فأحس من صوت الطرقات أن صاحبها لا يسأل لنفسه حاجة فظن أن القادم جاء ليعطيه هدية ، فأسرع من فوره وفتح الباب فأبصر أمامه « جبل » وهنا كان وكأنه قد رأى أمامه ملاك الموت لقد عرف أنه ليس في الأمر هدية ولا شيء قال له « جبل » : إنني خفت الطريق والوقت ليل فقلت أبيت عندك الليلة وأمضي في الصباح الباكر وإنني والحمد لله لست بجائع فأطلب منك طعاماً أو بحاجة إلى شراب فأكلفك شراباً .. لم يعجب هذا القول أبا مازن فقال بخبث : سكران أنا والله سكران ولا أفهم ما تقول .. فعاود جبل الحديث وقال : ما لي وسكرك يا أبا مازن .. إنني حتى لن أكلفك سطحاً أنام عليه لأضايق أولادك بالنوم في الغرف حيث الحر ، كما إنني لن أطلب منك لحافاً لأتدثر به فالجو ربيع كل ما أريده منك أن أستلقي في دهاليز بيتك حتى الصباح الباكر فأمضي لحال سبيلي .. إلا أن كل هذا الكلام لم يتغلب على بخل أبي مازن وشحه فادعى أنه متعب من السكر والخمر وقال لجبل : سكران والله أنا سكران ولا أعقل ما تقول أو أفهمه .. ثم أغلق الباب في وجه جبل ومضى لينام وهو يظن أن عذره الكاذب قد صدقه جبل ..

ومع سيرة هؤلاء من بخلاء العرب نطالع أحمد بن خلف اليزيدي .. وفي الحقيقة أن طابع البخل قد يتمكن من البعض حتى ليكاد يستقر في النخاع ويغوص في الشخص حتى أعماق أعماقه فنجده لايسلك مسلكاً ولا يذكر شيئاً

إلا وقد نبع من طبعه في التقتير والشح ، وعندها لا يتمكن هذا الشخص أن يخفي حبه للمال وشحه على نفسه بل تجده وقد أقدم على أفعال لا شعورية تمر عليه دون أن يحس بها .. وأحمد بن خلف هذا مثال لهؤلاء الذين تمكّن منهم البخل حتى طبعهم فصاروا بخلاء بالطبيعة .. وأحمد هذا مات أبوه وترك له ثروة ضخمة قوامها ستمائة ألف درهم وأربعين ومائة ألف دينار اقتسمها هو وأخوه ونال وحده ألف وثلثمائة ألف درهم وسبعين ألف دينار من الذهب الخالص .. لقد أصبح غنياً ولكن هيهات تحرك هذه الثروة وهذه الأموال ما انطوى عليه الطبع وعايشته الطبيعة والملك .. كان عند أصحابه ودعوه للعشاء فقال : لا والله لقد تعشيت أمس .. « في البيت » .. فقيل وأين يتعشى الناس إلا في بيوتهم . ولكنه قال : « في البيت » لأنه قلما يتعشى في بيته فهو على الدوام معزوم على العشاء .. فمن الغريب إذن بالنسبة له أن يتعشى في بيته وليس هذا إلا من قبيل التوفير والتقتير ..

ومن ذلك أيضاً أن أحمد بن خلف كان لا يترك منازل أصحابه وإخوانه أبداً وكانوا كلهم كرماء لا يبخلون عليه بشيء ، فإذا مكث عندهم غذوه وسقوه وأطعموه أطايب الفاكهة وكانوا يدركون ـ بالطبع ـ أنه لن يدعوهم ولو مرة واحدة لمنزله وكيف يفعلها وهو شحيح شديد الشح إلا أنهم كانوا يتمنون لو فعلها ودعاهم لمنزله ، وكانوا يطلبون منه ذلك ولكنه كان يتغافل عن مطلبهم وكأنه لا يفهم ما يقولون أو لا يسمع ما يتفوهون به .. وبينما هم يلحون في طلبهم ويقولون له : ادعونا ولو مرة واحدة . مرة واحدة فقط ولن نطلب بعدها دعوة ولا ضيافة .. ويتندر الناس ـ بالمناسبة ـ على أي شيء ينالونه من بخيل جلده ويعتبرونه حجاباً أو تعويذة تقيهم غائلة الفقر أو فلنقل فظاعة البخل وبشاعته .. المهم أن أحمد بن خلف لبّى الدعوة ودعاهم لضيافته بعد مجهود منهم وإلحاح وتوسل وبعد أن تمنّع عنهم كثيراً وأصم أذنيه عن

دعوتهم ... كانت دعوته طعاماً خفيفاً رخيص الثمن ليس فيه دسم أو لحم ولكنهم غُلبوا على أمرهم وأكلوا وعندما غسلوا أيديهم قال لهم : أخبروني .. أنا الآن أغنى وأيسر أو كنت كذلك قبل أن تأكلوا من طعامي .. قالوا له : بل قبل ذلك وأنت تملك الطعام كنت أغنى بالطبع من الآن .. قال لهم : إذن فأنا الآن أفقر أم قبل أن أدعوكم للطعام .. قالوا له : بل أنت الآن أفقر لأنك خسرت قيمة الطعام الذي أكلناه .. قال لهم : إذن كيف تلومني لأنني لا ألبي دعوتكم للطعام وهي تجعلني أقترب من الفقر وابتعد من الغنى وكلما دعوتكم أكثر كنت أقرب من الفقر أكثر وأبعد أكثر من الغنى .. كيف تلومونني على ذلك .. أي منطق هذا .. هل نرى كيف يعطون لكل شيء منطقه ويفسرون كل شيء تبعاً لأهوائهم ومزاجهم الخاص ؟ ..

ومن أقوال أحمد بن خلف المشهورة : إن كرامة الملائكة وقربهم من الله سبحانه وتعالى أتت من أنه سبحانه لم يبتليهم بالنفقة وبالعيال يطلبون باستمرار ولولا ذلك لكان لهم حال آخر وما كانت لهم كرامة على الله ، ولا جدال بالطبع في أن بعض هذا الكلام ينطوي على حقيقة : ألا إن منطق البخيل قد أراد به ما يرضي نفسه ويقنع طابعه الشحيح فلقد اختبر الله الإنسان وعرض عليه الدنيا بكل ما فيها من زينة وبهرج وجعل في نفسه حب التملك والسيطرة والرغبة في الاقتناء ؛ وتستطيع الدنيا بكل بهرجها وزينتها أن تأسر الإنسان بل وتضله ويمضي بعيداً عن طريق الدين والله ، وهنا قيمة الاختبار وعمق إرادة الاختيار في الإنسان وهي التي خصها الله سبحانه وتعالى للإنسان وجعلها له وحده دون سواه من سائر المخلوقات وكان نجاح الإنسان في المرور من قبل هذا الاختبار تشريفاً له وتكريماً يفوق ما للملائكة من كرامة ، يقول سبحانه وتعالى في كتابه الكريم : ﴿ **وَقُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا** ... ﴾ ويكمن هذا الاختبار في الأمانة التي عرضها الله سبحانه

وتعالى على الجبال والأرض فأبين أن يحملنها وحملها الإنسان وحده ..

نعود مرة أخرى إلى بخلاء الجاحظ ، يقول الجاحظ في كتابه : حدثني صاحب لي قال : دخلت على أحدهم ـ يقصد من البخلاء ـ وكانت مائدة الطعام موضوعة وقد فرغ المدعوون من طعامهم فأردت الأكل فقال صاحب البيت : لا تقترب من الطعام الصحيح بل كُلْ من الطعام الذي أكل منه القوم ، فلا تلمس دجاجة سليمة بل كُلْ من التي أكل منها الناس فخذاً أو جناحاً ، ولا تقرب يدك من رغيف سليم بل كُلْ من الرغيف الذي أصابه الطعام أو المرق .. وكان لهذا الرجل صبي صغير يذهب ويجيء بالأطباق والأكواب وكان الصبي يرانا نأكل والغيظ يطل من عَيْنيه ولكنه لم يحتمل أن يكبت غيظه ومضايقته فقال : ألم يكفكم اليوم كل ما أكلتوه .. يا ساتر .. إلهي يوجع بطونكم .. فقال أبو الصبي وهو يضحك : ابني والله هُو ابني من صلبي ..

وكان واحد من هؤلاء البخلاء ويسمونه الباساني إذا دعى نفراً من صحبه لتناول الطعام عنده يرفع يديه قبل أن يمد أصحابه أيديهم للطعام ويقول وكأنه يدعو عليهم : ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُوراً ﴾ ..

حديث خالد بن يزيد

أما خالد بن يزيد فكان من بخلاء العرب المعروفين وكان شديد الحب للمال ومثله مثل بقية البخلاء كان له مال وفير وثروة واسعة ، وقد قيل إنه بينما كان يسير أقبل عليه شحات فمد يده في كيس نقوده ليخرج فلساً ـ هو كالمليم مثلاً من نقودنا ـ وذلك لكي يعطيه للشحات إلا أنه أخطأ وأخرج درهماً ـ وهو كالقرش مثلاً ـ ولم يفطن لفعلته إلا بعد أن أعطى الدرهم للشحات وحينما أدرك ما فعله مد يده وأخذ درهمه بسرعة من يد الشحات وأعطاه بدلاً منه الفلس ، وحينما عرف الناس قالوا له : إن هذا لا يحل لك وهو حرام .. فنظر إليهم ساخراً وقال لهم : لقد جمعت مالي بعقلي وكدي وليس بعقولكم أنتم ثم أن هذا الشحات من الشحاتين الذين بحاجة إلى الفلوس ـ جمع فلس ـ وليس من الشحاتين الذين يحتاجون إلى الدراهم .. وكان الشحات سيرفض الدرهم وهو أعلى في قيمته المادية من الفلس وهو الأقل في قيمته ..

وخالد هذا في حقيقة الأمر جمع ماله من العمل والتسول والتنطع والبرود والنصب ، أي أنه فعل كل شيء حتى يجمع ماله .. وقد قيل إنه كان يربط ساقه وذراعه رباطاً شديداً ويبيت على ذلك ليلة حتى تتورم ذراعه وساقه ثم يمسحه بالصابون والزيت ويربطه بخرقه ويتسول بذلك فكان من يراه يعتقد أنه مريض بمرض عضال .. كما كان يجمع درهيمات قليلة في يده ويمشي يسأل الناس ، إنه كان ذاهب لشراء قطيفة وضاعت فلوسه فيعطيه الناس ظانين فيه الصدق ، وكان يلبس ثياباً وقورة ويظهر بمظهر الشيخ الجليل ويكلم الناس خفية وكأنه يخاف أن يراه أحد وذلك ليسألهم ويتسول منهم فيظن الناس أنه محتاج فعلاً لضرورة أو ظرف ألمّ به ، وكان خالد لا يتورع أن يقف على الأموات ليتسول رحمة ونور عليهم .. بالطبع هذه كلها من حيل المتسولين

وهي التي لا يزال يجيدوها حتى اليوم إلا أنها لم تخيب مع خالد بن يزيد فقد جمع عن طريقها المال الوفير والثروة الكبيرة ..

والآن لنمضي فصلاً آخر مع خالد هذا ونراه وهو يوصي ابنه تراه ماذا يقول له .. فلنقرأ معاً :

يقول خالد لولده وقد قارب الموت : لقد تركت لك مالاً إن حفظته يحفظك وإن ضيعته ضيعك ، وقد علّمتك من فنون التدبير والتقتير الكثير وهو خير لك من كل المال الذي تركته لك ، فإذا لم يكن في نفسك الدافع لحفظ هذا المال فإنه لن ينفعك شيء بعد ذلك .. لقد عاشرت كل الناس وصاحبت صاحب كل صنعة وعملت في كل شيء لم أترك شيئاً دون أن يكون لي فيه ما أنتفع به ومن كل هذا الجهد والسهر والتعب جمعت هذا المال ديناراً بجانب دينار ، وإنني يا بني لو كنت أعلم أن لك سعة من الصدر وبك من الحلم ما بك لأخبرتك بأسرار ذلك الكثير ، وإنني أعدك إن قمت من نومتي هذه ومرضي بالسلامة لأعلّمك من الفنون والصناعات والأسرار ما تنتفع به العمر كله ، إلا إنني أعلم أنك غير أمين على نفسك بالرغم من كونك ابني الأكبر .. لم أجمع مالي من الهواء وهو لم يسقط لي من السماء بل جمعته من الجهد والمكابدة والعمل في كل صنعة ومصاحبة مختلف الناس .. لقد علمتني ذلك التجارب العديدة ، وجمعت هذا المال الذي أتركه لك وإنني لا أحمد نفسي وأسر منها على جمع هذا المال ولكنني مسرور بنفسي وفخور بها لأنني تمكنت من حفظ هذا المال طوال هذه السنوات أن أضيع منه شيئاً ، فقد حفظت هذا المال ، من مكايد النساء وطمع الأبناء وأيدي السماسرة والوسطاء .. لقد علمت أن الأولاد لا يشكرون آباءهم إن كانوا أغنياء بالرغم من أنهم قد تركوا لهم ما يكفيهم لحياتهم ودنياهم ، وهم يريدون ليستريحوا من آبائهم لو كانوا فقراء حتى يكفوا أنفسهم حق إعاشتهم والرعاية بهم عند كبر سنهم ، وأنا لا أريدك من

هؤلاء أو أولئك ولا أحب أن يدخل القاضي ليحكم فيما لك وفيما لإخوانك .. وإنني هنا أقول لك إنك إن مضيت في طريقي وفهمت كلامي صار مال الناس مالك وأصبحت أنت الحافظ عليه ، وإن لم تفهم كلامي ولم تمضِ في طريقي صار مالك للناس وأصبح غيرك حافظاً عليه .. يا بني لقد منع الآباء أموالهم عن أبنائهم بعد أن يموتوا بترك تلك الأموال وقفاً للجمعيات الخيرية وغيرها ، كما منع الأبناء من تصرف آبائهم في أموالهم حجز ووصف الآباء بالجنون والضعف العقلي .. وإنني أظن فيك الخبث وأعرف أن المال الزائد قد أفسدك وقد زاد من ظني ذلك معرفتي أنك أكبر أولادي وبكري ، ولكنك تعلم أنه لو كان مالي هذا قد ضاع ولم أحفظه لكنت تهيم في الطرقات الآن تسأل عن كسرة خبز أو تعمل قاطع طريق أو تتحول إلى صعلوك من الصعاليك .. إنني أعلم أنك مازلت فتى فيك تسرع ولسانك يغلب عقلك ومازلت لم تصقلك التجربة ، وأخوف ما أخافه عليك حسن ظنك بالناس فإنهم عيون عليك تراقبك وتتعرف موضع سرك .. لقد غلبتني في يوم شهوتي وذهبت لكي أطفىء ظمأ هذه الشهوة ولما أخرجت الدرهم لأقضي به الشهوة وقع بصري على اسم الله المكتوب عليه فعرفت مقدار خطيئتي وقلت في نفسي كيف أفعل شيئاً حراماً بشيء عليه اسم الله .. إنني إذن لمن الخاسرين .. وبعدها كنت لا أخرج كل يوم إلا درهماً واحداً لأضمن أنه مع الإسلام وبالإسلام يُنفق .. هذه نصيحتي لك فاسمعها واحفظها ..

بعد ذلك مات خالد من وقته فما كان من ابنه إلا أن كفنه ببعض الخرق القديمة بالبيت وغسله من ماء البئر ثم دفنه دون أن يبني له ضريحاً .. وعندما ذهب ابنه إلى البيت وجد جرة (بلاص) معلّقة في السقف فقال ما هذا وما فيها .. ؟ قالوا له : ليس فيها اليوم شيء .. فسأله وماذا كان بها ؟.. قالوا كان بها سمن .. فقال وماذا كان يُصنع به ..؟.. قالوا : في الشتاء ربما وضع

دقيق في الطبق فكان في بعض الأوقات يخلطه بالسمن .. فقال باستياء وقرف .. السمن ثم يأتي بعده العسل .. إن السمن والعسل هما ما أضاعا الناس وأفسدا أموالهم .. والله لولا خوفي وحرصي على ثمن هذه الجرة لكسرتها على قبره .. قالوا : فكان الابن قد فاق أبيه في البخل والشح والعياذ بالله ..

يقول الجاحظ : كان يحيى بن عبد الله وهو واحد من البخلاء يرفع رغيفاً من خبزه بيده ويقول : يزعم الناس أن حجم خبزي صغير حتى أن الطفل الصغير يأكل منه رغيفين حتى يشبع .. هذا إن شبع .. وعلى ذكر الخبز والأرغفة يقول الجاحظ : كنت ومعي بعض الأصدقاء عند فلان وكان فلان هذا من البخلاء المقترين ، وكنا نأكل عنده وكان كل واحد منا قد أكل رغيفاً إلى جزء منه صغير ولم يشبعوا فيقوموا ولكنهم لم يجدوا شيئاً له قيمة يملاء بطونهم ، وظلوا وقتاً طويلاً وهم يمضغون الهواء لأنهم لا يجدون ما يمضغونه .. فخجل صاحب البيت وأمسك رغيفاً وقال لأحد ضيوفه خذ هذا الرغيف وقسّمه بينهم .. ولكن الضيف تغافل عنه ولم يسمع منه .. فكرر العبارة ثلاث مرات والضيف لا يسمعه ولا يلتفت إليه .. فلما كررها للمرة الرابعة قال له الضيف .. ألا تقطعه أنت بينهم .. مزق الله جسمك .. فقال الرجل البخيل ونبرة حزن تعلو كلامه : يا سيدي تأتي البلوة والمصيبة بأيدي غيرنا لا بأيدينا نحن ..

وكان الجاحظ قد زار هذا الرجل ومعه صاحب له وكان كل منهما يركب حماراً فلما أقبلا إلى داره قال صاحب الجاحظ لخدم الرجل يطلب منهم أن يسقوا الحمار ماءاً فقط .. فلما سقوه من ماء البئر وهو ماء مالح لم يشربه الحمار فقال لصاحب الدار البخيل : إن حماري تعوّد على شرب الماء العذب فاسقيه ماءاً عذباً ، فقال الرجل لخدمه امزجوا للحمار الماء أي : أن يسقوه بعض الماء عذباً والبعض الآخر ماء بئر ، إلا أن الحمار رفض شرب هذا الماء أيضاً فأخذ

صاحب الحمار يكلم الرجل بينما ادعى الرجل أنه أصم لا يسمع ..

وقد قال صاحبنا البخيل هذا مرة للجاحظ : لقد رأيت الناس بعضهم يغمس لقمته في الشوربة فقلت إنهم قوم يحبون الملوحة ، بينما وجدت آخرين يغمسون اللقمة في الخل ويأكلونها فقلت هم قوم يحبون الحموضة ، بينما أجد بعض من هؤلاء وأولئك بعد ذلك يغمسون لقمتهم في أطعمة لا هي بالملوحة ولا هي بالحموضة .. فتعجبت وسألت نفسي : ترى ما علاجهم ؟.. وعلى أي شيء يقوم طبعهم ؟.. يقول الجاحظ : إنني عندما وجدت ما عليه طبعه من بخل وحمق قلت له : إن أنفع دواء وعلاج لهم هو أن تمنع عنهم الأكل بكليته .. فقال البخيل فرحاً : معك حق .. لا أظن أن هناك أنفع لهم من ذلك ..

وكان أحد هؤلاء البخلاء قد استضاف بعضاً من أصحابه إلى مائدته وكان يعرف ما يظنوه من بخله وشحه فأراد أن يزيل من نفوسهم ذلك عنه فأكثر من الطعام وزاد منه .. إلا أنه بعد كل ما فعله نسي نفسه فقال لهم : من رفع يده قبل باقي الناس غرَّمناه ديناراً .. فكأنه رغماً عنه لم ينسَ أن يستفيد من هذه العزومة وكأنه يأخذ ثمن ما زاده من طعام .. وكان صاحبنا هذا قد أوقع بخباز خبزه علقة ساخنة وكأن الخباز قد فعل فاحشة كالزنى مثلاً فقد قام بجلده .. والسبب : أن صاحبنا البخيل قال لخبازه أن ينضج أرغفته على ثلاثة أنواع : النوع الأول وهو الأرغفة التي يأكلها هو أي صاحب البيت ، وهذه ينضجها الخباز كما ينبغي ، أما النوع الثاني فهو خبز من يأكل معه على مائدة الطعام وهذا الخبز يكون بين بين أي : « نصف سوى » .. أما خبز الخدم وعياله فهذه لا توضع في النار أصلاً أو توضع حتى يتماسك العجين فقط ثم تخرج ليأكلوه .. بيد أن الخباز لم يقم بهذه المهمة كما يجب فكان نصيبه الجلد وهذه العلقة ..

وكانت حادثة مماثلة قد حدثت لخادم مسكين كان يعمل عند أحد البخلاء

فقد طلب منه سيده عندما يأتي ضيوف إليه أن يضع سلة الخبز أمامهم ، ثم يتظاهر الرجل بأنه يستعجل خادمه أن ينضج الجدي بسرعة لكي يوضع أمام الضيوف ويقول الخادم : بقي قليل على الإنضاج ، ثم يأتي الخادم بالجدي وهو غير ناضج بعد ، وكأنه خاف سيده فأتى به على عجل فإن الضيوف بالطبع لن يأكلوا منه فيحتسب عليهم أنه قدَّم لهم جدياً مشوياً . ثم يعاد الجدي إلى النار مرة أخرى ويقدم في اليوم التالي بارداً ويكون بذلك قد قدم لضيوفه جديين لا جدياً واحداً ، ولكن الخادم المسكين لم يفهم أصول اللعبة جيداً فجاء بالجدي مشوياً جيد الشواء ، فعمل فيه الضيوف حتى لم يبق منه شيء فما كان من الرجل إلا أن جلد الخادم جلداً مبرحاً ..

قصة الخازمي

أبو محمد الخازمي هذا كان من أبخل قوم الله وقد عُرف عنه في البخل نوادر تفوق كل ما ذكرناه غرابة وعجباً ، يقول الجاحظ .. إنه كان يلبس جلباباً من الصوف في شهر أكتوبر ، وقد كان الشتاء على الأبواب ولا يزال الجو مقبولاً لم يخالطه البرد القاسي أو الصقيع الزمهرير .. كان الجاحظ يرتدي هذا الجلباب الصوفي القديم عندما قابله الخازمي فقال له : كم أنت مسرف وهذا لا يليق بك وإننا نعرف عنك رجاحة العقل والحكمة .. فاندهش الجاحظ من هذا الكلام وقال متفسراً : ترى ما الذي لا يليق بي يا خازمي ؟.. قال الخازمي : ملابسك .. كيف بالله تلبس هذا الجلباب الصوفي قبل أوانه ؟.. قال الجاحظ : بل إن في الجو لسعة خفيفة من البرد ونحن في أوائل الشتاء وما ارتداء هذا الجلباب بغريب .. حتى لو كان البرد في شهر يوليو وهو من أشهر الصيف لكان لبس هذا الجلباب مناسباً لا عجباً .. قال الخازمي : إذن كان عليك أن تلبس جبة محشوة أو مبطنة تكفيك البرد الذي تشعر به .. إنما لبس هذا الجلباب فهذا غير جائز .. ازداد عجب واندهاش الجاحظ وسأله : لماذا غير جائز ؟.. قال الخازمي شارحاً : إن غبار آخر الصيف يدخل في نسيجه فإذا أمطرت السماء وابتل كل شيء . ابتل هذا الغبار وما هذا الغبار سوى تراب وهو مالح فإنه يأكل القماش ويجعله يتآكل حتى كأنه السوس ينخر في الخشب فلا يجعل منه شيء .. إنما هذا الجلباب يُلبس بعد أن تمطر السماء ويسكن الغبار والتراب فيكون لبسه في هذا الوقت حافظاً باقياً له .

وكان الخازمي يزور عياله بالبصرة في العراق مرة كل سنة فيشتري لهم الأرز والدقيق ويكفيهم طوال سنة غيابه عنهم ، وكان عند شرائه للأرز ينظر في السوق إلى أرز كل بائع ثم يزن من هذا مقداراً ويزن من البائع الآخر

نفس المقدار ثم يأخذ أكثرهما وزناً .

والخازمي كان كغيره من العرب في هذ الوقت يبخرون ثيابهم بالأعشاب ذات الرائحة الذكية حتى تعلق هذه الروائح في ملابسهم .. إنما الخازمي كانت له طريقة عجباً في هذا التبخر فكان يأتي بالدهن ويمسح به صدر قميصه وبطنه وبين الأزرار ، ثم يأتي بالبخور فيتبخر وذلك لكي يعلق البخور في الدهن فيبقى زمناً أطول ، وكان يقول إن الشتاء أفضل من الصيف عندي لأنه يحفظ رائحة البخور في ملابسي أكثر مما يفعل الصيف وما يفرزه الجسم من عرق وأوساخ ، ثم يستطرد مبيّناً أفضال الشتاء على الصيف .. إنه لا يفسد الخمر وإن تُركت بلا غطاء ، ولا يتعفن فيه مرق اللحم إن بقي أياماً .. وكان من عاداته أن يلبس ملابسه فوق القميص الذي بخره وذلك في الصيف حيث الحر .. وكان ذلك ـ وياللغرابة ـ حتى لا يضيع البخور في قميصه حيث إن ملابسه فوق ذلك القميص تحفظ البخور من أن يبخره الهواء فيضيع .

وحدث أن استلف منه صاحب له مائة درهم فقابله الجاحظ وهو حزين منكسر فقال له : لماذا أنت حزين ، أنت تحزن ويكون ذلك من حقك لو لم يكن لك الأمر في هذه السلفة ، بل فعلتها باختيارك وأنت تعلم أن لا مال لك يضيع ولا يمكن لأحد أن يعتبره منك هبة فيطمع فيه ، وأنت لا تخاف أن يشكوك أحد فلست مدين لأحد بمال كما أن هذه السلفة شهرة لك تمسح من ألسنة الناس ما يتناقلون عنك من بخل وشح .. فلماذا إذن كل هذا الحزن ..؟.. قال الخازمي بنبرة حزن شديد : اللهم ليس لي إلا أنت ، لقد كنت أحسب أن أحداً لن يطمع في مالي ، وأن الناس في يأس من أن ينالوا مني شيئاً . إلا أن هذه السلفة قد بدّدت هذا الظن .. ألا تعرف أن من عوامل إفقار المرء أن يطمع فيه الناس .. فإن طمع فيه الناس فهم يعملون كل حيلة وشرك حتى يسلبوه هذا المال فيفتقر .. هل وجدتَ فقيراً يحوم حوله الناس أو

يتصلون به .. لقد ضاع كل ما فعلته السنوات السابقة في سد أطماع الناس وزرع اليأس في قلوبهم ، غداً يشيع أمر هذه السلفة فيعرف الجيران والمعارف والصحاب .. أخوف ما أخافه أن يكون الله سبحانه في سمائه قصد إفقاري .

ومن أقوال الخازمي المأثورة قوله : يقول الناس إن جلبابك إذا لبسه صاحبك كان أحسن منه عليك .. وإنني أقول : لنفرض أن صاحبي هذا كان أطول مني قامة أو أقصر مني طولاً أيكون ثوبي عليه هنا أحسن من لبسي له ، إنني أجعله أضحوكة وسخرية الناس .. لذلك يجب ألا أعطي كسوة لأحد إلا إذا كان مثلي وشبيهاً لي .. ومن لي مثلي لو يشبهني ..

وقال له صاحبه ذات مرة : رأيتك يا خازمي قد رضيت بأن يقول عنك الناس إنك بخيل .. فقال الخازمي : والله إنني أحب هذه الصفة وأدعو الله ألا تمحى عني أبداً .. قال له صاحبه مندهشاً : كيف ؟.. قال الخازمي : لا يقال لأحد إنه بخيل إلا إذا كان له مال كثير .. وماذا يهمني من قولهم بخيل أو شحيح طالما أن عندي المال قناطير مقنطرة .. فقال له صاحبه : ولكن يقال أيضاً إن فلاناً كريماً وهو أيضاً عنده من المال الكثير .. فيكون هذا الرجل الكريم قد جمع بين المال والكرم وهو شيء محمود ، بينما يكون البخيل قد جمع بين المال والبخل وهو شيء مذموم وقبيح .. قال الخازمي : صحيح ما تقول .. ولكن هناك فرق .. قال صاحبه : إذن ما هو هذا الفرق ؟.. قال الخازمي : قول الناس فلاناً بخيلاً يحفظ له ماله ويثبته ، أما قولهم إن فلاناً سخياً فهذا سبيل إلى ضياع ماله وفقره .. فصفة البخيل فيها حفظ للمال وذم لصاحبها ، وصفة الكريم أو السخي فيها ضياع للمال ومدح لصاحبها والثناء والشكر ، وطالما بقي المال فهو نافع لأهله مكرم لهم ومعز لشأنهم ، أما سماع الكريم للحمد والثناء والشكر ففيه ضعف وسخرية وحب للمديح وما أغنانا عن هذا كله والحمد لله .. ثم ماذا ينفع المديح إذا ضاع المال وجاعت البطون

وضاعت العيال وشمت كل حاسد وحقود ..

يقول الجاحظ : كنا عند داود بن أبي داود وهو أحد الولاة ، وكان إن أتته هدايا من البصرة فأخذ يوزعها بين الحاضرين وكان إذا أعطى الخازمي شيئاً من الهدايا أعطاها الخزامي لغيره ، فتعجب الجاحظ من أمره وظن أن بالأمر سراً فكيف للخازمي وهو المعروف بالبخل والشح يفعل هذا .. حقيقة إن الأمر صار محيراً .. وهنا قال الجاحظ للوالي داود : قد عرفنا أن الخازمي يهرب من العطاء فهو لا يعطي أبداً ولو بشق شق له جسم ، إنما هو في الأخذ أسرع من البرق وأخف من الطير فكيف يغيّر من مذهبه وعهده ..؟.. قال الخازمي مفسراً ما فعله .. قال : إن هذه الهدايا ستجلب لنفسي ما لا أطيق ولا أريد فمثلاً هذه الأطباق إذا ما أخذتها إلى المنزل فإنها ستدفعنا إلى صنع الأرز والعصائد ، وإن أردت أن أبيعها صرت هزءاً وعبرة لأنني بعت هدية والي .. ثم إن تركتها في المنزل سيعوزني ذلك إلى استعمالها فأضيع فيها الثمن ثم يجذب الثمن العسل وغيره وهو ما يضر به العيال .. أما إن صنعت فيها نبيذاً وخمراً فإنني سأحتاج إلى العنب والحطب والماء ، وإلى خادم يهتم بتحويله إلى نبيذ والسهر عليه وهو يطبخ على النار ، فإذا أسود منه الجلباب كان لزاماً علينا أن نحضر غيره له لأن أبخرة الحطب هي التي سوّدته ، وإن فسد النبيذ فإنه سيتحول إلى خل وهنا تضيع علينا النفقة التي دفعناها لتحويل العنب إلى خمر ، أما إن تحول إلى الخمر وجلست في البيت أشربه فإنني بحاجة إلى الفاكهة والدجاج والمعسل وغيره ، وقد يكون هناك نديماً يشرب معي وكل ذلك نفقة ما بعدها نفقة وتبذير ليس له أول ولا آخر .. وكيف يمكنني دفع الصديق وهو يعلم أن عندي خمراً إن دفعه بلاء لي ، وإذا أدخلته فشقاء وغصة من كثرة النفقات .. وهنا أكون قد صنعت بنفسي ما لا أحتمل وقد صرت واحداً من المسرفين والذين هم إخوان الشياطين ..

يقول الجاحظ : كنا مرة في جماعة وكان القوم في صمت إذ أقبل واحد منا وقال يخاطبني : يا جاحظ .. ترى من هم أبخل أصحابنا ؟.. فقال الجاحظ : هناك أبو الهذيل ، وقال صاحبنا : ثم من ؟.. قلت : واحداً منا لا أريد أن أذكر اسمه .. فقال الخازمي وكان يجلس بيننا : إنما يعنيني أنا .. ثم استطرد الخازمي يقول : أنتم تحسدون الذين يقتصدون في النفقات وينمون أموالهم لتدوم عليهم النعمة فقلتم عليهم بخلاء ، في نفس الوقت الذين تظلمون فيه المسرفين وتقولون عنهم كرماء بينما هم متلفون لمالهم مفسدون لنعمة أنعم بها الله عليهم ..

ومن نوادرهم في البخل وعكسهم المنطق يلوون به عنق الحقيقة لكي يتمشى مع مذهبهم في الشح وعقيدتهم في التقتير والبخل ما كان من أحدهم وهو خالد ابن عبد الله القسري ، وكان الناس يرمونه بالبخل في الطعام وتقتيره على نفسه في الأكل والشرب ، فتكلم مرة يدافع عن نفسه وأخذ يقول ويقول والناس يسمعون لكنهم لا يقتنعون وإذ به يأتي بحجة غريبة يؤيد بها ما ذهب إليه من أمر أكله وشرابه ، فقال كان في الجاهلية قبل الإسلام واحد من العرب يقال له خالد المهزول .. وكان إن نظر خالد المهزول هذا يوماً إلى أناس يأكلون وبهائم تعمل وتجتر ما ربط فيها فكان إن أثر فيه هذا المنظر وأقسم بين أصحابه أن لا يأكل لحماً أبداً ، وعاش بعد ذلك يتناول اللبن ويصبر عليه حتى هزل جسمه وضعفت قواه فعُرف بين العرب باسم خالد المهزول .. فكان خالد بن عبد الله ـ بخيلنا ـ يزعم بهذه الحجة أنه عمد إلى قلة الطعام والشراب مثلما فعل خالد المهزول .. ونحن نعرف أن هناك بعض النباتيين ممن يعزفون عن تناول اللحوم وكان الكاتب الأيرلندي الساخر برنارد شو واحداً منهم ، وهم يفعلون ذلك لا عن بخل بل عن مبدأ يؤمنون به وهو أنهم يحرمون سفك دم الحيوان والتمثيل به ، بيد أن خالد المهزول هذا كان واحداً منهم أيضاً

وبالطبع فإن شتان بين تقتير خالد المهزول في الطعام وتقتير خالد بن عبد الله القسري في الأكل .. ولكنه دستور البخلاء وتفسيراتهم التي تتبع هواهم ..

قصة الحارثي

كان الحارثي يصنع الطعام فيجيد صنعه ويهتم بصانعه وكان لا يهتم بمدى ما ينفق على الطعام من مال ، ولكنه كان لا يستضيف أحداً ولا يجعل من صاحب له أو نديم يشاركه طعامه أو تضمه مائدته العامرة بأطايب الطعام فقيل له : يا حارثي ما لك لا تستضيف أحداً يشكر لك طعامك وكرمك ويذكرك على الدوام لكريم صنعك معه .. أو كأنك لا تريد من يؤنسك بحلو حديثه ويمتعك بالقصص والروايات .. قال الحارثي : يمنعني من فعل ذلك ما قاله أبو الفاتك .. وأبو الفاتك هذا سوف نعرف آرائه في فصل قادم .. المهم أن الحارثي يستشهد بما قاله أبو الفاتك فيقول : إنني لم آكل مع أحد أبداً إلا وذم في الطعام وصاحب الطعام وبيت صاحب الطعام ، تساوى في ذلك أحقر الناس وأعظمهم شأناً ومركزاً .. فما لي أنا ومال الضيوف إذا كان هذا هو عهدهم وسلوكهم .. والله إن الوحدة في هذه الحالة أفضل بكثير من جليس السوء وجليس السوء خير في كل حالة من أكيل السوء .. كيف أرضى بمن يأكل معي على مائدة واحدة أن يلتقط بعينيه أطيب ما في الطعام وأفضل ما فيه فتمتد يده إليه قبل غيره ليختطفها .. هل يطيب الأكل مع الذي ينظر إلى ما في يد غيره فيطيب في ناظره ولا يرضى بما بين يديه ، بل لا يكتفي بذلك فهو يكشف عورات المنازل ولا يستر بيت يدخله .. وإذا أكل مع كبير السن لا يرحمه ولا يهتم بالأطفال هل تصل أيديهم للطعام أو لا تصل ..

وقد كان من أحدهم ويدعى علي الأسواري أن دعي على مائدة عيسى بن سليمان ولم تمض إلا برهة وقدّم أمامهم سمكة رائعة ذات لحم وشحم كثير ، وعرف « علي » هذا أن بطن السمكة يمتلىء دهناً وشحماً وما أشهى ذلك في الأكل إلا أنه كان مشغول بالشراب ، فلما فرغ منه وجد أن بقية المدعوين قد

أخذوا لقمتهم وغمسوها في بطن السمكة وكان « علي » يعرف كيف يختار للقمته أجود ما في الطعام ، وعندما أدرك « علي » أنه سيخفق في الحصول على نصيبه من السمكة مد يده إلى لقمة عيسى واختطفها منه وكانت إلى فمه أسبق .. فلما رأى القوم ذلك عاتبوه وعنّفوه .. وقالوا كيف يفعلها دون مجازحة أو ضحك إنه لأمر عجيب .. إلا أن علي قال : لِمَ أيكن الأمر كما تصورتم .. كل ما في الأمر أن يدي ويد عيسى هوت فوق السمكة في نفس الوقت ، وكانت يدي في مقدمة بطن السمكة بينما كانت يده هو في مؤخرتها حيث يلتحم الشحم بأمعاء السمكة ، وعندما رفعنا أيدينا معاً كنت أنا أسرع منه وكانت الأمعاء متصلة فوجدت أن كل شيء كان في لقمته قد تحول إلى لقمتي فماذا كنتم تحسبونني فاعل .. ثم استطرد يقول : إنكم بذلك تضعونني وأشرار الناس في سلة واحدة وكيف أستوي مع كل من يعيب غيره ويدعى لمائدة الغير ولا يطعم أحداً ثم يفتري على الناس نميمة وغيبة ..

ويقول الحارثي : كيف أطعم من إذا رأيته يقصر في الأكل فطلبت منه أن لا يقصر فيه ويزيد منه عرف فضل التقصير في الطعام من غيره ، وإذا لم أطلب منه ذلك ولم استحثه قال : لولا إنه أحب أن لا أزيد من الطعام لما سكت .. فالضيف هنا ـ في رأي الحارثي ـ لن يرضى بأن ينبّهه صاحب البيت ليزيد من الأكل أو لا ينبّهه إلى ذلك .. ويحكي الحارثي أن رجلاً قد دعي إلى مائدة المهلب وبينما هم يأكلون طلب الرجل من الخادم أن يسقيه إلا أن الخادم تغافل عنه ولم يستجب له ، وكرر الرجل طلبه عدة مرات والخادم غافل عنه مهملاً له ، فلما رأى المهلب ذلك قال للخادم : هيا أيها الخادم اسقه ، فلما سقاه طلب الرجل المزيد من الشراب وكان المهلب قد نبّه خادمه بأن يقلل من الشراب ويكثر من الخبز والطعام ـ دليلاً على فرط كرمه ـ إلا أن الرجل الضيف قال : إنك سريع في دفعك لخادمك لكي يسقيني بل لقد دفعته ليزيد

من الشراب لي ثم رفع يده من على المائدة ممتنعاً عن الطعام .. وهنا أدرك المهلب الفهم الخاطىء الذي استقر في ذهن الرجل فقال له : دعك أيها الرجل من هذا فإنه لا ينفعك لقد كان غرضنا شيئاً وفهمت أنت خلافه ..

نفهم إذن من ذلك أن الحارثي يبرر عدم استضافه الناس على موائده لسوء سلوكهم ليس على مائدة الطعام فقط بل وبعد انتهاء الضيافة كذلك .. فهم على مائدة الطعام يحاولون أن ينالوا كل طيب وجيد من الطعام ولا يهمهم بعد ذلك من أكل ومن شبع .. حتى إذا ما فرغوا من طعامهم وانصرفوا قذفوا صاحب البيت وذموه وكشفوا عورات وستر أهل بيته .. ثم يأتي الحارثي باثنين ممن عُرفوا بالظرف والقبول لدى جميع الناس حتى أنهم يدعونهما إلى موائدهم ويبالغون في إكرامهما والإحسان إليهما .. وهما الجارود بن أبي سبرة وأبو الحارث جمين .. فأما الأول ـ الجارود ـ فكان يتحدث مع بلال بن بروة وكان بلال هذا رجلاً يعيب الناس ويذمهم ما أراد إلى هذا سبيلاً .. قال بلال للجارود : ماذا عن طعام عبد الله بن عثمان .. قال الجارود : يلاحظ لقمة ضيفه وينتهز فرصة يسأل فيها الضيف فيشغله عن طعامه .. فقال له بلال : وماذا عن طعام مسلم بن قتيبة ؟.. قال الجارود : إنه لا يصنع طعام أكثر من ثلاثة فإن دعى أكثر من ذلك جاعوا من قلة الطعام .. فسأل بلال عن طعام تسنيم بن الحواري ؟.. قال الجارود : طعام قليل كأنه لعروس خجلت أن تضع شيء في فمها .. وهكذا أخذ يعيب هذا وذاك فلا يستقر على شيء حسن أو طبع جيد يذكره لأحد حتى كأنه قد سوّء كل أهل البصرة ..

ثم هذا أبو شعيب التلال كان قريباً من « مويس » ومويس هذا كان رجلاً كريماً .. وكان شديد الإحسان لأبي شعيب سخياً في ضيافته وكرمه له .. فلما سألوا أبا شعيب عن « مويس » ماذا قال ؟.. يقول أبو شعيب : إنني لم أر من هو أبخل منه ولا أشح في طعامه منه .. تعجّب الناس وسألوا عن

السبب .. قال : إنه يصنع الطعام ويهيئه تهيئة من لا يريد له أن يُمس أو يُؤكل وكيف يجرؤ الإنسان أن يمد يده لطعام عليه من الهيبة والحسن ما يغنيك عن أكله والتمتع به ، فكان كأنه قد جعل حسن الطعام وقاية له من تناوله .. فكان أبو شعيب يقول : إن « مويس » قد حول ما ظنه إحساناً وفضلاً إلى إساءة ومنعاً وهو دليل - في رأيه - على بخله وشحه ..

أما أبو الحارث جمين فقيل له : نسألك عن طعام محمد بن يحيى ؟.. قال أبو الحارث : إن عيناه وقت الطعام كعين مجنون .. وهو يريد بذلك أن يقول إن صاحب البيت يتابع ما يأكله ضيوفه بعين أصابها الجنون والخبل .. ويقول أبو الحارث أيضاً في طعام محمد بن يحيى : إنه لو كان في كفه بعض من حبات العنب ولعب بيديه لعبة الضرب بالكرة لما وقعت منه حبة واحدة من شدة حرصه عليها وحفظه لها .. ويمضي أبو الحارث ليقول عن طعام محمد بن يحيى : إنه لو كان له ضعف ما عنده من الخبز لبكى السحاب دماً دون أن يترك هو رغيفاً واحداً يمضي من يديه ..

وفي تشبيه أبي نواس لخبز بعضهم أن يقول عنه : إن خبزه مثله مثل الثوب إذا ما شُق فإنه يُرفا ويُعا د كما كان .. وقيل لرجل : إنك قد نزلت بجميع قبائل العرب فكيف رأيت خزاعة ؟.. قال : جوع وأحاديث ..

وقد نزل رجل من الأعراب بصاحب بيت فأكرمه وآتاه بلبن وبلح وسمن وخبز .. فبات عنده الرجل وأصبح الصباح فإذا هو يهجوه ويذمه لأنه لم يأت له باللحم .. وكان الرجل لا يملك بعيراً فيذبحه له أو خروفاً يقدمه لضيفه .. يقول الجاحظ : إن هذا الرجل لو ذبح لكل كلب يمر به بعيراً كل يوم حتى يتقي لسانه وذمه لمر أسبوع وهو لا يجد ما يسد به جوعه ولوقف يسأل الناس ويشحذ منهم ..

وكان رجلاً من أصحاب الأمير زياد قد لزم بيته لا يبرحه طالما أن هناك

طعاماً .. وعندما علم زياد بذلك أمر بأن يُحبس الرجل .. إلا أن الناس عابوا على زياد فعلته وقالوا : إنه قد استثقل حضوره باستمرار وأراد أن يخفف عنه ما ينفقه ذلك الضيف الثقيل من مال وطعام .. بيد أن زياد قد فعل ذلك خوفاً من أن يضر ذلك بأولاده .. يقول الجاحظ : إن زياد كان خوفه على أولاده من هذا الضيف البارد ، مثل خوف عمر بن الخطاب رضي الله عنه على رعيته وحنوه عليهم .. ثم يقول الجاحظ : ومثل ذلك فعلها الحجاج الثقفي عندما اعتمد مبدأ القوة في طرد من ظنه سوءاً فأهلك الناس .. وكان الحجاج قد تشبه بزياد وما فعله بصاحبه الثقيل ..

وكان يوسف بن عمر يقول لخادمه أكثر من العصيدة فإنها تناسب الشيخ العجوز الذي ذهبت أسنانه وتناسب الصبي الصغير الذي لم تنبت له ضرس بعد .. وعندما عرف الناس عنه ذلك قالوا : لقد أراد أن يصنع لضيوفه شيئاً سريعاً ورخيصاً ليحفظ عليه ماله ويغيظ به ضيوفه .. ونسوا ما قاله الرسول عليه الصلاة والسلام : « سيد الطعام الثريد ـ أي : العصيدة ـ ومثل عائشة في النساء كمثل الثريد في الطعام » .. وكانت العصيدة من أطيب الطعام عند العرب حتى أنهم سموا عمر بن عبد مناف بهاشم لأنه هشم الخبز لصنع العصيدة .. وقد استحسن الناس العصيدة وفضلوها عن بقية الطعام وعرفوها بأنها تؤكل بيد واحدة لا يدين مثل كثير من الأطعمة الأخرى واللحوم ..

وكان عوف بن القعقاع قد قال لخادمه : اتخذ لنا طعاماً جيداً يشبع بطوننا ولا يفسد لنا ديناً ولا أخلاق .. فأخذ الخادم يعدد له ألوان مختلفة من الأطعمة والأشربة .. إلا أن القعقاع استوقفه وطلب منه طعام يؤكل بيد واحدة لا بيدين .. فأخذ الخادم يضيق في الأطعمة ويحاول أن يجد لهم هذا الطعام حتى قدّم لهم العصيدة .. فاستحسنها القعقاع وقال : ما لنا وطعام العجم .. إن العجم أفسدتهم الثروة والترف وتركيب الطعام على الطعام حتى

أقفلت اللذة عندهم منافذ الروح والقلب فأماتتها .. وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد فعل شيئاً من ذلك ليؤدب قومه .. فقد دعي إلى عرس فرأى آنية كبيرة أو قدراً لونها أصفر وأخرى لونها أحمر ، واحدة ذات طعم مر والأخرى ذات طعم حلو وواحدة لها طعم حامض .. فأدهشه ذلك وخاف أن يفسد هذا الترف نفوس الناس فجمع القدور كلها وصبها جميعاً في قدر واحد كبير وقال : « إذا أكلت العرب من هذا لقتلت بعضها بعضاً » ..

نصائح أبي الفاتك للشباب

يقول أبو الفاتك : الفتى لا يكون نشّالاً ولا مرسالاً ولا لكّاماً ولا مصّاصاً ولا نفّاضاً ولا دلاكاً ولا مقوّراً ولا مغربلاً ولا محلّقاً ولا مسوّغاً ولا مبلّغاً ولا مخضراً .. ويضيف الحارثي لهؤلاء أيضاً .. اللطّاع والقطّاع والنهاش والمدّاد والدفّاع والمحوّل ..

والآن ما تفسير كل هذا الكلام ..؟.. يقول أبو الفاتك الفتى لا يكون نشالاً .. والنشال هنا ليس هو الذي يسرق وما تعارف عليه الناس .. النشال في قصد أبي الفاتك هو الذي يتناول من الطعام قبل أن ينضج بل قبل أن تنزل القدر من على النار ويستأثر بالدسم من الطعام دون سواه من رفاقه على المائدة .. أما المرسال فهو واحد من اثنين : الأول، هو الذي إذا وضع في فمه لقمة أو قطعة من الحلوى أو العصيدة أرسلها في جوفه في سرعة وخفة يُحسد عليها فهو لا ينتظر لها مضغاً أو هضماً .. أما المعنى الثاني لكلمة مرسال فهو الفتى الذي إذا سار في طريق به أشجار ومعه صاحب له ثم قابله على الطريق غصن يعترض طريقه قبض عليه بيده ليبعده عنه حتى إذا أبعده عنه أرسله من يده في قوة دون أن يهتم إذا كان سيصطدم بوجه صاحبه أو لا .. واللكّام فهو الذي يضع في فمه لقمة ثم قبل أن يضغها ويبلعها يعاجلها بلقمة أخرى .. والمصّاص هو الذي يهجم على العظمة فيمص جوفها ويستأثر بما فيها من دسم دون أصحابه ، أما النفّاض فهو الذي إذا ما فرغ من غسل يديه في الطشت بعد الأكل ينفض يديه في وجه أصحابه وهو دليل ـ لا شك ـ على قلة ذوق وأدب .. أما الدلاك فهو الذي لا يغسل يديه بالماء غسلاً جيداً ولكنه يدلك يديه بالمنديل وقد يكون قد أكل دسماً ولحماً فينتقل كل ذلك للمنديل .. والمقوّر هو الذي يستأثر بالطعام فيقور أوسطه ـ وهو أجود ما فيه ـ ثم يترك

باقيه لأصحابه .. أما المغربل فهو الذي يأخذ وعاء الملح فيغربله على طعامه وحده حتى لا يبق فيه شيء لأي من رفاقه .. أما المحلقم فهو الذي يتكلم واللقمة قد بلغت حلقومه أو زوره وهو بذلك يضرب بقواعد احترام المائدة والذوق عرض الحائط .. فاللكلام وقت وللطعام وقت .. والمسوِّغ هو الذي يكور في اللقمة ويكبرها حتى تغلق فمه من كبرها وتكاد تكتم على نفسه فيبلعها بالماء .. أما المبلعم فهو الذي يأخذ حواف الرغيف ويترك وسطه وهو الذي يغمس البلحة بإبهامه في الزبد والسمن أو اللبن والبيض حتى تخرج محملة بكل ما يمكنها حمله من غموس .. والمخضر هو الذي يدلك يده من بواقي الطعام حتى إذا ما أخضرت يداه من الدسم والشحم دلك بها شفتيه ..

أما الحارثي فقد أضاف إلى كلام أبي الفاتك صفات لا يجب أن تكون في الفتى وهذا هو تفسير ما قاله الحارثي .. يقول : لا يجب أن يكون الفتى لطَّاعاً ؛ واللطَّاع هو الذي يلطع إصبعه من المرق واللبن حتى إذا ما امتص ذلك عاد وأدخل إصبعه مرة أخرى ليلطعه مرة أخرى .. أما القطَّاع فهو الذي يعض على اللقمة فيقطعها نصفين ويغمس نصفها في الطعام ثم يعود ويغمس النصف الآخر في الطعام ويكرر ذلك مرات .. والنهاش هو الذي يقبل على اللحم فينهشه نهشاً وكأنه أحد السباع انطلق في البراري المتوحشة .. أما المدَّاد فهو الذي يمد يده إلى قطعة اللحم التي لم تنضج ويمدها بفمه ويشدها بيديه حتى أنه ليسقط دسمها على من بجواره من أصحابه ، وهو أيضاً الذي إذا انفض من أكل نصيبه من التمر أو الهريسة أو الأرز انقض على ما مع رفاقه يجهز عليه أيضاً .. أما الدفَّاع فهو الذي إذا جاءت أمامه قطعة عظم ليس بها لحم في طبقه أناحها بلقمته حتى تأتيه قطعة لحم ، فهو بذلك يريد أن يتشرب المرق بدسم اللحم مع وجود اللحم نفسه .. والمحوِّل هو الذي إذا وجد أمامه تجمع من نوى التمر من أكله احتال حتى يضيف هذا النوى إلى نوى صاحبه حتى لا يقال إنه قد أكل كثيراً .

منطق أصحاب الأملاك وقصة الكندي

الكندي هذا صاحب بيت وعنده شقة يؤجرها أحياناً مفروشة وأحياناً خالية وهو مثل كل أصحاب الأملاك له دلال على شاغل شقته التي يؤجرها ولكنه دلال من نوع خاص .. نوع غريب ..

كان الكندي يقول للساكن عنده وربما وصلت به الجرأة إن لم تكن الوقاحة ليقول لجاره كذلك .. كان يقول : إن في داري امرأتي وهي حامل وتتوحم وربما وصل إلى أنفها رائحة ما تطبخونه فتوحمت عليه فينزل الجنين وبه مرض أو عيب أو قد يموت فيكون الذنب ذنبكم ، فإذا ما طبختم من طعام فأرسلوا منه ولو قليلاً حتى لا تتعذبوا إذا حدث للحامل شيء أو لمولودها ضرر .. وبذلك كان يجتمع في بيت الكندي من الأطباق الكثير الذي ربما يكفيه لأيام ، وكان يقول لأولاده أنتم خير أولاد هذه المدينة فهم يأكلون كل يوم من لون واحد من الألوان المختلفة للأطعمة ولكنكم تأكلون من ألوان مختلفة وأطباق متعددة ..

يقول عمرو بن نهيوي : كنت عند الكندي على الغداء فدخل جار له ونحن نأكل إلا أنه لم يعرض عليه أن يشاركها طعامها : فخجل عمرو ودعى الرجل لتناول الطعام فحاول الرجل أن يجلس إلا أنه قبل أن يفعلها قام الكندي وكتّف الرجل تكتيفاً حتى لا يستطيع بعده أن يمد يداً أو قدماً وتركه وهو على حالته .. وكان واحداً من ساكني داره قد قال للجاحظ : لقد نزلنا عند الكندي ما يقرب من السنة وكنا ندفع الإيجار ونلبي مطالبه ونفي بشروطه .. فتعجب الجاحظ وسألهم أما الإيجار فأمره معروف وتلبية الحاجات أيضاً معروف ولكن أي شروط اشترطها عليكم .. قال الساكن : من عادة الكندي على سكانه أن يشترط عليهم قبل سكنهم داره أن يكون له روث

البهائم ـ وهو برازهم ـ وعظم الشاة وقشور الرمان ونوى التمر وكذلك جزء من أي طبيخ يطبخونه حتى يعطيه للحبلى ـ كما كان يزعم ـ في داره وكنا ـ الكلام مازال للساكن ـ نرضخ لكل شروطه لمعرفتنا ببخله وتقتيره ..

أما « معبد » وكان قد سكن غرفة من منزله بالإيجار فقد نزل عليه ابن عمه وابن له كضيوف وعندما علم الكندي أرسل له ورقة يقول فيها : إن إقامتها لو دامت يوماً أو يومين فإنني أحتمل ذلك أما لو دامت أكثر من ذلك فهو أمر يثير فينا طمع الناس وهنا يختلف الأمر .. فرد عليه معبد أن إقامتها عنده قوامها عنده ما يقرب من الشهر .. فأرسل إليه الكندي ورقة أخرى يقول له فيها : إنك تستأجر الغرفة بثلاثين درهماً وأنتم ستة تقيمون فيها فكل رأس بخمسة دراهم أما وقد زدتم اثنين يكون عليهما عشرة دراهم فإن أجرة الغرفة من يومك هذا بأربعين درهماً لا ثلاثين .. فكتب إليه معبد معاتباً قائلاً له : ما يضرك من مقامهما عندي هل تزيد الأجرة لثقل وزنها على الأرض التي تحمل الجبال .. إنك لن تطعمهم حتى تزيد أجرتك .. فلماذا الزيادة هل لك أن تخبرني عن السبب ؟.. هنا كان رد الكندي وهو رد غريب وهو يدهشنا بقدر ما يفصح عن أن السلوك الذي يتبعه كثير من ملاك العقارات لا يختلف كثيراً في أي زمان أو مكان .. وقبل أن نفصل رد الكندي على معبد نستسمح القارىء في طول الرد وكثرة الحجج التي ساقها الكندي مبرراً لزيادة أجرة الغرفة فماذا قال ؟.

يقول الكندي : سألتني عن سبب زيادة أجرة الغرفة وهي كثيرة منها امتلاء البالوعة بسرعة وما في تنقيتها من نفقات ، أيضاً أقدام ساكني الغرفة إذا زادت زاد تكسير بلاط الأرضية وتكسير اللالم والعتب ومحو الطلاء وانخلاع الخوص الذي في سقف الغرفة ، كما أن كثرة الدخول والخروج والفتح والإغلاق تعرض الأقفال للخلع والأبواب للتهشيم وتقلع الرزات وتخلع المسامير ، مما

يزيد النقر والحفر التي تعشعش فيها الحشرات والديدان ومع زيادة المقيمين في الغرفة وزيادة الزوار والعيال يزيد صب الماء وما يفعله في الحوائط من تآكل وإفساد في أساس الحائط وتداعي البنيان ..

كما أن كثرتهم تزيد من عمل الطبيخ والخبيز والوقود والنار كما هو معروف لا تبقي ولا تزر وإنما حطبها هو منزلي ذاته ، وكم من حريق أتى على منزل لم يبق منه شيء مما كلف صاحب البيت بعد ذلك المال الكثير وربما أتى الحريق على ما يجاور المنزل المحترق من منازل فأتى عليها أيضاً .. وفوق كل هذا إن الناس لا يتركون صاحب البيت الذي احترق في حاله ولكنهم يتشاءمون منه وبه ويستثقلون ذكره ، ثم أن المستأجرين يقيمون مطابخهم فوق الأسطح مما يجعلهم يكشفون ستر جيرانهم ويعرون حريمهم ، وفوق الأسطح تكون النار قريبة من الخشب والقش وهي كلها أشياء تشتعل بسرعة .. كيف ينسى السكان ذلك ويقترفون إثماً وظلماً في حق الملاك ..

ثم أنتم تماطلون في دفع الإيجار حتى إذا تجمّع الشهر وراء الشهر هربتم من الدار ليلاً تاركين صاحبها يندب حظه على ضياع أمواله ، فكأنه وبالرغم من إحسانه لسكانه وبناء البيوت لسكناهم يفرون بحقه وإيجاره دون ضمير ولا أخلاق ، ثم أن الساكن يسكن الدار وهي نظيفة مرتبة فإذا تركها كانت قذرة هي والمزبلة سواء بسواء إضافة إلى التخريب فيها مما يستحق نفقة كثيرة لإصلاح ما خرب فيها .. ومن السكان ما إذا همَّ بالرحيل عزَّ عليه أن يترك في المنزل شيئاً دون سرقته فهذا قفل .. لا مانع .. وهذا سلَّم .. يحمله معه .. ويتعمد السكان الدق على الأرض وبجانب الحوائط مما يعرض الجدران للتداعي بالرغم من أنني قد صنعت لهم قطعة صخر في جانب من الدار للدق عليها ولكنهم يفضلون الدق حيث يجلسون غير مجلين أنفسهم مشقة القيام لاستعمال الصخر في الدق ..

ومع كل هذا فإن الساكن يستكثر أن يدفع في السنة عشرة دراهم بينما نحن دفعنا ثمناً للبيت ألف دينار ندفعهم دفعة واحدة عند الشراء ثم يأتي الساكن ليحتل المكن جاهزاً دون مشقة .. ومع مضي الزمن والأيام يبلى المكن ويتهدَّم بينما يكون الساكن هو الذي تمتع بمرافقه .. وهو الذي أبلى جدته حتى تحلل وتهدم .. فإذا جاء المالك وأخذ يعيد ما بلى ورمَّم ما تهدم كلَّفه ذلك الشيء الكثير ؛ فإذاً المالك خاسر لأنه تكلَّف أضعاف مضاعفة ما أخذه من أجر ، ثم أن الكلفة تُدفع مرة واحدة بينما الأجرة تدفع أجزاء .. ومن المعروف لدى جميع الناس أن للمكن ريحاً ونفساً لساكنه فبعض المساكن يأتي بحظ سعيد لمن يسكنه فيصيب الساكن التوفيق والربح في كل ما يفعله ، فإن زاد رزقه إن كان تاجراً أو صانعاً فإنه لا يتذكر صاحب المنزل الذي كان فاله سعيداً له فيزيد من إيجاره ولو درهماً واحداً ، أما لو كانت ريح المنزل سيئة الطالع وأصاب الساكن الخسران وعدم التوفيق طلب الساكن وألح في تخفيض الإيجار لأنه في ضيق وأزمة .. فهل هذا من العدل في شيء .. ولا يخجل الساكن من أن يدس ضمن نقوده التي يدفعها كإيجار الدرهم المزور أو الدينار الزائف أو التالف فإذا حاولنا أن نرده له ونستبدله بآخر أقسم بأغلظ الأيمان أنه ليس من نقوده ولا يدري عنه شيئاً ..

ويعمد بعض السكان إلى اقتراف الجرائم ثم سكنى منزل للاختفاء من الشرطة حتى إذا ما اكتشف أمرهم وعُرف مخبأهم وعرف الناس جريمتهم جروا معهم صاحب البيت دون أن يكون له ذنب أو جريرة ، وعلى أفضل الأحوال فإن الشرطة تسوي المنزل بالأرض .. ثم أن الساكن أمره في يده وكل دار هو مسكن له أو متنزه أو متجر إذا أراد .. بفلوسه طبعاً .. بينما صاحب البيت يموت غماً وحزناً إذا لم يأتي إلى داره ساكن لأنه دفع ثروته كلها في الشراء دفعها كلها دفعة واحدة بينما عند تأجير المنزل فإن الساكن يدفع الإيجار مقطَّعاً مجزءاً ..

لذلك فإنني ـ الكلام للكندي ـ بعد كل ما أخبرتكم به من الأسباب فإن حكم النازلين عندكم مثله مثل حكم المقيمين في المنزل مما يستوجب زيادة الإيجار ليشمل زيادة رأسين وهي ضيفكما وهذا عدل بيني وبينكم ..

حكمة الكندي في البخل والشح

لا جدال في أن الكندي كان حكيماً وله منطق يعجز أمامه من يدّعون الفلسفة والحكمة .. ونراه وهو يدافع عن بخله وعن ليّه للحقائق فيدهشنا بقوة بيانه وبلاغة حديثه .. يقول الكندي : تسمون من منع ماله وحصنه وحفظه خشية الوقوع في إذلال الفقر ، سميتم هذا بخلاً وكأنكم بذلك تذموه وتشتموه أما من لم يعرف فضل الغنى وبدّد ماله ونسي ذلة الفقر وأسرف حتى أهان نفسه بإكرامه لغيره سميتم ذلك كرماً وجوداً وكأنكم بذلك تمدحوه وتحسنوا فعله ..

ثم يستطرد الكندي فيقول : إنما المال لمن حفظه والغنى لمن تمسك به ، ولحفظ المال بُنيت الحيطان وأُغلقت الأبواب وصُنعت الخزائن وعُملت الأقفال وتعلّم الناس الحساب والكتابة .. كل هذا بفضل المال .. واعلموا أن حفظ المال أشد صعوبة من جمعه والمال لمن حفظه والحسرة لمن أتلفه وإنفاق المال هو إتلافه .. وفي زعمكم أن إنفاق المال كرماً وحفظه بخلاً وقد قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « ابدأ بمن تعول .. » فهل تريدون منا أن نطعم غيال غيرنا ونترك عيالنا وأن نسعد الغريب ونشقي أنفسنا ومن نعول .. إن هذا لا يصح ولا يكون وليس من العدل في شيء ..

ويقول الكندي : عجيب لمن قلَّ ماله كيف ينام .. ولكن لا يستوي من لم ينم سروراً ومن لم ينم غماً وحزناً لقلّة ماله ، ونمضي مع الكندي في منطقه فنراه يقول : قال الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « إنك لئن تدع عيالك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس » .. إذن كيف تطلبون مني أن أجعلكم قبلي وأن أفضل عيالكم على عيالي والمقابل لذلك صفة الكريم وبعض المديح .. إنها إذن لمقايضة خاسرة ..

وكان الكندي يقول لعياله وأصحابه : اصبروا على أكل البلح في أوله أي :

في أول ظهوره في الأسواق وكذلك كل فاكهة في أولها لأنها تكون قليلة غالية الثمن .. فالنفس لها نزوة وشهوة ولكل جديد بشاشة وهو مطلوب فإن ردعتم أنفسكم رجعت وإن أطلقتوها ذهبت بكم ، وكأن لسان حاله يردد مع الإمام البوصيري بيت شعره الذي يقول فيه :

والنفس كالطفل إن تهمله شب على حب
الرضاع وإن تفطمه ينفطمْ

ويقول الكندي في هذا المقام : كذلك النفس إن حملتها احتملت وإن أهملتها فسدت فإن حسمت أمرها في أول طلب ورددته عليها صارت ضعيفة غير ميّالة للشهوة ، وهكذا إذا ما ظهر في السوق فاكهة جديدة إن تجاهد نفسك وتأخذها بالصبر حتى تكثر هذه الفاكهة في الأسواق ولازلت مستمراً على مجاهدتك لنفسك ، فلربما ينتهي موسم هذه الفاكهة دون أن تطلبها نفسك فتخفف عن كاهلك بعضاً من النفقات وتوفر عليك مالك وتحفظه ، واعلم أن الشهوة فتنة والهوى عدو فإن ائتمنتها على نفسك فقد ضعت وهنا يكون الخطر كل الخطر عليك .. ولن تجد أشد من الشهوة والهوى ضرراً للإنسان وأكثر عداوة له .. فإذا ضمنتم الشهوة الأولى والنزوة الأولى أضمن لك تمام الصبر واليسر والغنى بعد ذلك ومن ثم تعظيم الناس لكم .. وحاجة الناس لكم طالما إنكم أغنياء ولم تفرطوا في درهم واحد .. فأنتم عظماء في عيون الناس طالما أنهم لم ينالوا من مالكم شيئاً .. وصاحب المال دائماً مصون الجانب محترم من الجميع وهو عند كبار القوم يحتل الصدارة في المجلس وفي أي غنيمة كذلك فهو فوق الجميع بفضل ماله وحده .. انتهى كلام الكندي وليس هناك تعليق على حديثه ولكننا نرى الحكمة حقاً تتخلل هذا الحديث وإن كانت لحكمة ذات مظهر برّاق لا يخلو باطنه من خبث ترضاه نفسية صاحبه ..

حوار مع بخيل ..

لهم مذاهبهم وهم يتحايلون للدفاع عن هذه المذاهب وربما يملك بعضهم منطقاً يجعلك تظنه الحق ـ كما رأينا مع الكندي ـ وهذا محمد بن عليّ المؤمل يحاور الجاحظ .. يقول الجاحظ : عرفنا لك خيراً كثيراً .. ولكنك تمنح الخير إلا قليلاً ؛.. فأنت تطعم الناس.ولكنك تقلل من الخبز حتى أنني أرى عندك من الضيوف ما يزيد بكثير على عدد خبزك .. وكان ظني أنك لو وفرت على نفسك كل هذا وأكلت وحدك لما سمحت للناس أن يصفوك بالبخل والشح .. ولعلمي أنك تطعم الناس طلباً للشكر والمديح والذكر الحسن ، لكن بصنيعك الذي تصنعه بقلة الخبز والطعام قد دفعت الناس إلى ذمك ولومك فكأنك لم تفعل شيئاً ، وذهبت كل دعواتك وطعامك أدراج الرياح لأنك لم تزد في الخبز والطعام ليذكر لك الناس كرمك ، وما وفرت على نفسك كل هذا فتجلس والناس في غنى عن ذكرك بلوم أو وضعك بذم ..

قال محمد بن عليّ : أنت تخطىء يا جاحظ بقولك هذا وخطأك عندي لكبير لأنني أعرف مدى عقلك وتفكيرك ، ويدهشني منك خوفك من فعلي وعدم إدراكك علة هذا .. إنني لا أكثر الخبز على مائدتي لأن قيمة المأكول في قلته ، وهو إن كثر على الموائد أصاب النفس بالصدود عنه والملل فيه فتموت الشهوة له ولا يفتح شهية أو يرضي صاحب بطن .. وتخيل أن أحداً جلس على جبل من الموز أو من التمر إنه سيأكل على قدر طاقته واستظرافه لما يأكل .. ونحن نضع الطعام على المائدة ولو احتاجوا لمزيد لطلبوا منه ، ولكنهم لا يفعلون ثم يخرجون ليصفون ضيافتنا بالبخل .. إن هذا إذن لتجني منهم وتسرع لا أرضاه ..

قال له الجاحظ (مواسياً) : لقد رأيتهم يأكلون في بيوتهم وعند بعض

أصحابهم ثم رأيت أكلهم عندك ، والحق أقول لك إن البخل في طبعهم وهم سريعوا الظن .. لذلك أرى أنك لا ترسل في طلبهم وهم عندما يجدونك لا تلح في طلبهم سيمتنعون وحدهم وبذلك تكفي نفسك مؤنتهم وحديثهم القبيح عنك ..

قال محمد بن عليّ : اعلم أن زيادة الخبز على المائدة يجعله عرضة لتلطيخه بالطعام والأدام وهو متى حصل له ذلك فإنه لا يعاد مرة أخرى إلى المائدة ، بل لا ينفع في الأكل ويكون هذا باطل والله لا يحب الباطل ..

يقول الجاحظ : يقول الناس إنه يمكن مسحه ووضعه في الشوربة أو صنع العصيدة منه ، وهو بهذه الطريقة لا يذهب باطلاً ..

قال محمد : إنني أعلم كيف يصنع بالطريقة التي تقولها ولست أحب ذلك أو أرضاه ، أو تخيل لو عرف الناس أن خبز الشوربة أو العصيدة هو من بقايا الموائد .. إنه إذن لأمر مكروه غير مستحب ..

قال الجاحظ : إذن يمكن أن تأمر به لعيالك ويقوم في هذه الحالة مقام الخبز النظيف ، فبعد مسحه وتنظيفه يمكن أن يكون غذاء للعيال ..

قال محمد مندهشاً : كيف أرضى لعيالي ما لا أرضاه لغيري وعيالي اثنين واحد أرفعه وأكره أن أفعل ذلك له والآخر صغير وبينه وبين الخبز سنوات حتى يأكله ..

يقول الجاحظ : إذن فليكن الخبز كله من النوع الجيد النظيف الغير ملطخ بالطعام ..

قال محمد : نحن بهذا نعود إلى بداية الحوار .. فإنك تطالبني بزيادة عدد أرغفتي وقد رأيت أن أحضر هذه الزيادة على طبق وأجعله في طرف المائدة . فإن أراد أحدهم طلب ذهه بكثرته لا يجعل الطلب عليه يزيد ..

فلما جاء وقت الغداء نادى على خادمه وكان يُدعى « مبشر » وأمره بأن يعد الخبز على عدد رؤوس مَنْ عنده فقلت له : فلنفرض أن أحداً من ضيوفك لم يشبعه رغيفه فماذا يفعل ؟ هل يمد يده إلى رغيف من بجانبه أو يقوم بنصف بطن فكأنه ما أكل ولا شبع .. قال محمد بن عليّ (بحزم) : أرى أن نترك هذا الحوار والخصومة لأننا لن نتفق والأفضل أن نترك الطعام كله ونفضها سيرة .. قلت له : هذا أفضل لك ولنا ..

وكان محمد ينادي خادمه « مبشر » ويقول له : يا مبشر هات لنا الطعام وأقلل منه وأحضر لنا الماء البارد وأكثر منه .. وكان يقول : تغير حال الدنيا حتى المؤاكلة .. قاتل الله رجالاً كنا نأكل معهم كانت الأطباق ترفع وفيها بقية من طعام .. وكان إحضار الشاة لهم في الأكل وهو شيء رفيع وذو مستوى كبير هو علامة لليسر وليس علامة لتمزيقها وتخريبها .. ولو كانت للأكل لقدمناه في الأول إنما نقدمه أخيراً ونرى البعض يعبث به ، بينما رفع القوم أيديهم بنهاية الطعام والأكل .. ولو لم يكونوا قد رأوه لما أطالوا جلوسهم على المائدة ..

وكان من نصائحه قوله : إن الناس يتخموا لأنهم لا يشربون الماء على الطعام ولو شربوا الماء على طعامهم ما أصابتهم التخمة .. فالرجل لا يعلم مقدار أكله حتى يشرب الماء وقد يكون شبعان وهو لا يدري ، فإذا ما شرب الماء عرف مقدار أكله والماء يمري ـ في رأيه ـ وقول الناس إن ماء دجلة أمرأ من ماء الفرات .. ولذلك فقد كان ينصح بشرب الماء على الطعام فإنه أمرا .. هذه نصيحته ولكن من عجب أنه يقول إن الأطباء يعرفون ذلك ولكنهم لا ينصحون به الناس وكيف ينصحون الناس بشيء فيه صلاح أبدانهم وهم يريدونهم مرضى على الدوام .. بالطبع إن مقصده يرجع إلى أن شرب الماء على الطعام يملاء المعدة فلا تمتلاء بالطعام وكثيراً من الناس يعلمون أن شرب الماء

على الطعام شيء غير مرغوب فيه لأنه يسبب سوء هضم ؛ فالماء يخفف من عصارة المعدة الهاضمة وبالتالي يقل تأثيرها على هضم الطعام ومن ثم امتصاصه بعد ذلك .. ولكنه مثل كل بخلاء عصره الذين تعوّدوا على طمس الحقائق ..

ومن أقواله : إن الرجل إذا طلب الشراب آتوه بقلة أو دورق من الماء ، أما إذا طلب الطعام آتوه ببقايا ما يفضل من القوم ، فرخص الماء وغلاء الخبز هو ما جعل الناس يتكالبون على الخبز ويزهدون في الماء فالمتاح دائماً غير مرغوب فيه .. فالناس يعظمون ويفخمون ما غلا ثمنه وقلّ عدده .. فالتفاح مثلاً في بلد مثل مصر لا يُزرع فيه هو من أغلى الفاكهة ولكنه في بلاد يزرع فيها مثل سوريا ولبنان رخيص السعر لا قيمة له فهو متوفر فيها بكثرة ..

وكان محمد بن علي يتخذ من التدابير والحيل إذا ما كان عنده ضيوف ما تعجز عنه شياطين الأرض جميعاً .. فكان يمسك سلال الخبز بيده وهي فارغة ليشعر القادم إليه بأنه لا غذاء لديه .. وكان إذا دخل عليه الضيف يقول لخادمه هات يا مبشر شيئاً ليأكل منه الضيف ، وهو هنا ينتظر خجل الضيف أو إنفته في أنْ يقول له شكراً لقد أكلت ، فإذا قالها الضيف المسكين يسأله بأي شيء تغذيت فيضطر الضيف إلى اختلاق أي شيء فيزيد محمد بن عليّ من إغلاق الأبواب في وجهه حتى لا يجد بعد ذلك ما يقوله .. فيستطرد قائلاً له : لقد كنا عند فلان وقال أحدهم إنه تغذى وامتنع ولكنه أضاف ولكنكم تجيدون عمل طعام معين .. كل هذا والضيف صامت وكأنه يقول له : لا تقل ما عندكم أو هات شيئاً تجيدون صنعه من الطعام .. وهكذا يصمت الضيف حتى ينادي محمد بن عليّ خادمه بأن يحضر أي شيء عنده يعبثوا به لا ليأكلوه ، وفرق طبعاً بين الطعام يُعبث به والطعام يؤكل .. فإذا جاء ما يمكن تسميته طعاماً وهو ليس بطعام يقبل على أشد ضيوفه حياء خجلاً ويسأله عن حديث طريف إلى قلبه ـ أي : قلب ضيفه ـ ويتعمد أن يكون الحديث من

النوع الذي يحتاج فيه المرء إلى استخدام يديه ورأسه حتى يشغله ذلك عن الطعام .. فإذا أكل ضيوفه جزءاً من الطعام وهم لا يزالون في بدايته أظهر الشبع وقلة الشهية والتنفير من الطعام ، ثم يرفع يده عن الأطباق مما يجعل ضيوفه هم أيضاً يرفعون أيديهم وبذلك يكونون كمن جلس ولم يأكل ، فإذا رُفع الطعام تركهم خلسة إلى ركن من الدار فيهجم على الطعام كالجائع الشرس ينهش فيه ويزيد إلكاكه شرباً حتى يمتلىء فيعود لمجالستهم وكأن شيئاً لم يحدث ..

وكان كثيراً ما يقول لأصحابه إذا أتوه مبكرين .. لماذا لا نشرب بعض النبيذ ـ وهو الخمر ـ إن النبيذ على المعدة الخاوية يغسل البدن ويشفي الفؤاد ، وإن لم تريدوا خوفاً على صحتكم أو كبدكم فإنما هذا دليل على نقص في فتوتكم ورجولتكم ولا أظنكم على هذا المنوال .. فإن صدقوه وهم غالباً مصدقين له وأقبلوا يشربون فهذا هو يوم لا ينزل فيه في جوفهم لقمة واحدة وهو يوم سعيد الطالع بالنسبة له ، فهو في سرور لا حد له فقد ضم الصحبة الطيبة دون أن ينفق على طعام أو وليمة ..

وكان إن اشترى مرة سمكة وهو ببغداد ، وكانت سمكة تملاء عين من يراها لشحمها ولحمها وهو يحب السمك كعادة كل أهل البصرة وأخذ يعدّ نفسه لتناول السمكة وغلبته شهوته عليها ، فمضى بها إلى مكان بعيد ليستفرد بأكلها لا يشاركه فيها منازع وظن أنه انفرد بها وسال لعابه من تلهفه على أكلها ، ولكنه فوجيء بالجاحظ ومعه قط بري شرس وكان محمد بن عليّ يخاف القطط ، فلما رآه ورأى الشر في عين القط ورآه يلوك لسانه في فمه عندها وكان كمن رأى ملاك الموت رؤية العين ، أو كأنه واجه الطاعون وجهاً لوجه وبالفعل لم يمهله القط حتى هجم على السمكة وقوّر سرتها بمخالبه والتهمها في لمح البصر ، فقال محمد بصوت هزّه الحزن والألم : انظر يا جاحظ إن القط

يحب السرر وقد بلع السرة كلها .. ولم يكل جملته حتى هجم القط على قفا السمكة فالتهمه كله دفعة واحدة ، فقال محمد والدموع تملأ عينيه : أرأيت إن القط يحب الأقفاء أيضاً ، فلم يلبث القط إلا أن التهم وجهي السمكة ، فلم يبق منها إلا ذيلها وظن أن القط لا يحب ذيل السمك ولا يستعذب لحمه ، فما كان من القط إلا أن هجم على الذيل فلم يترك منه شيئاً وبقيت السمكة هيكلاً يحمله رأس ولم يبق من أطايبها شيء ، إلا ومحمد بن عليّ يكاد يفتت الغيظ كبده وقلبه .. وبينما هو على هذه الحالة إذ أقبل القط على العظام والرأس فالتهمها وبقيت السمكة أثراً بعد عين فقال محمد بن عليّ : هل رأيت يا جاحظ القط يحب كل شيء .. أترى لم يترك منها شيئاً .. واشتد به الحنق فأخذ يتقيء وغلبته حمى شديدة .. ومضى إلى داره وهو يقسم بأغلظ الأيمان أن لا يشتري سمكة بعد اليوم أو يأكله حتى ولو أهدوها إليه فكفاه ما جرى وما كان ..

التدبير في منهج التقتير ..

أسد بن جاني كان أحد بخلاء الجاحظ وكان من عادته أن يصنع سريره من بوص القصب بعد تقشيره ، فكانت البراغيث تنزلق على البوص ولا تستقر عليه لأنه أملس .. ومن عاداته الغريبة أنه كان عند دخول الصيف واشتداد الحر يصب الماء على حوائط البيت وسقفه لكي يندیه بالماء فيرطب الجو وإذا ما جفَّ الماء قبل انقضاء الصيف فكان يصب الماء مرة أخرى ..

وكان أسد ممن يفهمون في الطب وأساليب المعالجة إلا أنه ابتعد عن ممارسة هذه المهنة فسأله أحدهم قائلاً له : الأمراض متفشية بين الناس وأنت لك باع طويل في علاج الأمراض فلماذا نراك لا تعمد للمعالجة ولك وللناس فيها منافع عظيمة ؟ أجابه أسد : أقول لك لماذا ؟.. لأنني مسلم والناس يعتقدون أن المسلمين لا يفلحون في الطب ـ في رأيه ـ واسمي أسد وكان ينبغي أن يكون اسمي صليباً أو يوحنا ـ أي : قبطياً ـ ويعرفني الناس بأبي الحارث وكان المفروض أن يعرفونني بأبي عيسى أو بأبي زكريا ، كما أنني أرتدي لباساً قطنياً أبيض وكان مفروضاً أن يكون الرداء حريرياً أسود ، وأخيراً فإن لغتي عربية وكان مفروضاً أن تكون لغتي أعجمية .. من هذا الكلام نلمح صفات من كان يشتغل بمهنة الطب أيام العرب ونظرة المجتمع العربي والبدوي له .. وفي الحقيقة إن هذه صورة للواقع الذي كان سائداً في عصر الجاحظ نقلها بكل أمانة ..

واحداً آخر من هؤلاء البخلاء وكان يُدعى الثوري .. كان يقول لعياله : لا تلقوا نوى التمر بل كلوه وعوِّدوا أنفسكم على أكله فإن النوى يكثر الشحم في البطن ويدفىء الكليتين ، ولكم في الإبل والبهائم آية في ذلك فإن هذه الحيوانات قد تعوَّدت على أكل النوى بالفطرة لما فيه من فائدة لها .. وأنتم لو

عددتم أنفسكم على أكل أي شيء لوجدتموه مقبولاً مستساغاً ومن يدري فقد يأكل الناس نوى التمر في يوم من الأيام .. ثم أن الشحم يدفيء أجسامكم فما أحوجكم بما يغنيكم عن الوقود والنار ، والشحم أو الدهن يبيّض الوجوه أما النار فإنها تسوّد الوجوه .. وكان يقول لعياله أيضاً : كلوا الموز والبرتقال وبقية الفواكه والأطعمة بقشورها فإنها تقول ـ أي : الأطعمة ـ من أكلني بقشوري فقد أكلني ومن أكلني بغير قشوري فأنا الذي آكله ، فكيف تصبحون طعاماً لطعامكم ..

وكان الثوري صاحب مال كثير وثروة كبيرة وكان يقول إذا ما اجتمع اس كثيرين : قد علمتم أن لا وارث لي لهذا المال فإذا مت فهذا المال لفلان شهد الناس على ذلك .. وكان يغيّر فلاناً هذا في كل مرة حتى أن قوم كثيرين بايعوه وصاروا له أهل وصحبة دائمة .. يقول الجاحظ : إنه رآه يمشي في الطرقات وحذاؤه في يده ثم رآه مرة أخرى يمشي في حذاء مقطوع فلما عاتبه القوم لذلك قال : إن المجوس أو عبدة النار يمشون وهم يلبسون أحذية قديمة مقطعة .. فقيل له : إن المجوس ليس لهم دين وهم مع ذلك لا يمشون حفاة أو بأحذية مقطوعة فكيف تفعل انت ذلك وأنت مسلم ولك مال كثير .. قال الثوري : إن المال كثير ولكن هل أضيعه في النفقات والسرفات .. فقالوا له : أليس بين هذا وذاك شيء وسط ..

في أحد المرات كان الثوري جالساً في المسجد يسمع بعض المصلحين فكان رجل من أصحاب الثروات يتكلم عن تجربته في صيانة الملابس وغيرها من التلف السريع فكان الرجل يقول : اجعلو لكل شيء بطانة فإن البطانة تحفظ الملابس من التلف فإن القميص الذي لا يبطن يتقطع سريعاً والعمامة التي تبطن لا تتلف من كثرة ثنيها وطيها .. فبطنوا كل شيء حفظوه .. بطنوا الحصر ـ جمع حصيرة ـ والأفرشة وبطنوا الغذاء بشربة ماء

بارد .. وهنا رد عليه الثوري قائلاً : لم أفهم مما قلت شيئاً إلا قولتك الأخيرة .. يقصد ملء المعدة بالماء لتقليل الطعام أو تبطينه كما كان يقصد الرجل من كلامه ..

وحدث ذات مرة أن أصيب الثوري ومن معه من عياله وخدمه بالحمى .. ونظراً لارتفاع درجة حرارتهم فإنهم لم يتمكنوا من تذوق الخبز .. ففرح الثوري جداً لأنه وفر كيلة من الدقيق الذي كان سيعد خبزاً لأكلهم وقال : لو كان منزلي يقع في منطقة يمكن أن نصاب فيها بالحمى بين وقت وآخر لوفرت كل سنة أكثر من مائة دينار من توفير الخبز والدقيق أيام الحمى ..

ومن أقوال الثوري قوله : أول الإصلاح وهو واجب أن تركب نعل لحذائك لتقويته وأن تسير به في الطرقات بتمهل ورفق لئلا يذوب ويتقطع .. ومن الإصلاح كذلك قلب القلنسوة ـ وهي عمامة تلبس على الرأس ـ كلما اتسخت ثم غسلها بعد قلبها ولو كانت من اللون الفاتح الذي يمكن صبغه فإن ذلك أفضل لأنها تستخدم بعد صبغها من جديد .. أيضا من الإصلاح ـ في رأيه ـ اتخاذ قميص الصيف جبة في الشتاء .. وكان الثوري يعتبر الحمار خيراً من ألف دينار لأنه يركبه وعليه يطحن الدقيق فيوفر أجر الشيال والطحان وينقل عليه الحوائج حتى الحطب ويحضر عليه الماء .. وكل هذه أمور لو لم يكن يقوم بها الحمار لكلفه ذلك المال الكثير ..

ومن أحاديثه المدهشة والغريبة في آن واحد أنه قال : اشتريت ملاءة (عباية) فلبستها ما شاء الله وجعلتها لي لحافاً ما شاء الله ثم أصبحت احتجت إلى جبة فقطعت منها جبة ولبستها إلى ما شاء الله ثم حشوت الجبة ولبستها إلى ما شاء الله ثم أخرجت ما في الجبة من حشو وجعلته مخاد ـ جمع مخدة ـ واستعملتها إلى ما شاء الله ثم أخرجت القطن من المخاد وجعلته قطناً لإنارة القناديل ثم جمعت خرق المخاد وجعلتها للقلانس ـ جمع قلنسوة ـ ثم

جمعت ما بقي من كل هذا من الخرق والخيوط والقطن وخلافه بعته كله دفعة واحدة وأحضرت بثمنه صنيات وقوارير وأكواب ..

يجرنا الحديث الآن إلى واحد من أشد البخلاء بخلاً وأكثرهم تقتيراً وشحاً وهو أبو عبد الرحمن .. نراه يوصي ابنه فيقول له : يا بني إن إنفاق القراريط يفتح عليك أبواب إنفاق الدوانيق ـ والقراريط والدوانيق أجزاء من عملة الدينار مثل المليم والقرش الآن ـ وإنفاق الدوانيق يفتح عليك إنفاق الدراهم وإنفاق الدراهم يفتح عليك إنفاق الدنانير والدنانير والعشرات تفتح عليك إنفاق المئات والمئات تفتح عليك إنفاق الآلاف وهكذا حتى يأتي ذلك على كل ما عندك فلا يبق لديك شيء فتقعد ملوماً محسوراً .. يا بني لقد قالوا : إن كلمة « درهم » تأتي من « دار الهم » وكلمة « دينار » تأتي من كلمة « دار النار » فالدرهم لو خرج من جيبك ولم يحل آخر محله يدخل جيبك فقد حل عليك الهم والحزن .. والدينار يدني من النار فإذا خرج هو الآخر من جيبك دون إحلال محله أو بدل يدخل مكانه جلب عليك الفقر والعوز وجعلك بحاجة تستجدي الناس وتسألهم الطعام ، هنا قد يعز عليك مالك الذي ضاع فتحاول الكسب من الطرق الملتوية والحرام فيجلب عليك هذا الكسب الخبيث مما يورطك في أعمال تقام عليك فيها الحد وهذا يدنيك من النار فانظر ماذا ترى ..

ونحن يدهشنا حقاً تأويل كلمة درهم بأنها « دار هم » وكلمة دينار بأنها « دار النار » .. وهذا التأويل ليس لأبي عبد الرحمن لكنه لعبد الأعلى القاضي والذي قال : الفقير رداؤه ـ أي : لبسه ـ علقة ومرافقته سلبة وهو الحبل يربط به وحذاؤه فلقة وهو له في الطيب من هذا كثير .. وقد قيل بمناسبة تأويل الألفاظ أن نوحاً عليه السلام سمي نوحاً لأنه كان ينوح على نفسه وربما كان ينوح على قومه لأنهم كفرة وهذا هو الأقرب ، أما آدم فقد قيل لأنه من أديم

الأرض أي : سطحها وتربتها أو لأن لونه كان مثل لون أدمة الأرض في سمرتها ، وسمي المسيح مسيحاً لأنه مسح بدهن البركة وقد قيل لأنه كان لا يقيم في بلد واحد بل كان ينتقل من بلد إلى بلد فكأنه مسح الأرض فسمي مسيحاً .. هذه كلها تآويل أوجبتها كلمة الدراهم والدينار وتأويلها كما يرى عامة البخلاء ..

ماذا من أمر أبي عبد الرحمن هذا ؟.. كان هذا الرجل عجباً .. فهو يعشق رؤوس الغنم ويتغزل فيها لرخصها وكان لا يأكل اللحم إلا في عيد الأضحى أو في دعوة أو على سفر وكان يسمي رأس الغنم عرساً لما فيه من طيب الطعام ، وكان يسميه أيضاً الكامل وسماه في إحدى المرات الجامع لما يجتمع فيه من ألوان مختلفة الطعم والمذاق فتراه يقول في الرأس ـ الدماغ ـ وله طعم مختلف وفي الرأس العينان ولهما طعم مختلف ومنه أيضاً الشحمة وهي قطعة اللحم بين أصل الأذن ومؤخرة العين ، ولها كذلك طعم مختلف وهي أطعم من الدماغ أو المخ بل وهي ألذ من الزبد .. وفي الرأس اللسان وله طعم مختلف كذلك كما أن في الرأس الخيشوم أو الأنف والغضاريف التي في الأنف وفي الرأس كذلك لحم الخدين ولكلٍ طعم مختلف عن الآخر .. ثم يستطرد فيقول : والرأس هو سيد البدن ففيه الدماغ وهو أصل العمل ومنه تتفرق الأعصاب التي بها يتم الإحساس ، وفي الرأس العين التي تدرك الأشياء والنفس التي تسمع وتشعر وفي الرأس الحواس الخمس ـ ولست أدري كيف تجتمع حاسة اللمس لتكون في الرأس وهي خاصية بجلد الأصابع إلا إن كان يقصد ترجمة رسائل الإحساس بالمخ وهي قضية علمية لم تفهم إلا مؤخراً ـ وكان أبو عبد الرحمن يذكر قول الناس إن هذا الشيء هو رأس الأمر وفلان رأس القوم ويشتقوا من الرأس الرئاسة وخلافه وإنما هذا لتعظيم الرأس وتفضيلها على سائر الأعضاء ..

وكان أبو عبد الرحمن عندما يفرغ من أكل الرأس يعمد إلى عظم الجبين

وبقية عظام الرأس ويضعها بجانب بيوت النمل ، حتى يجتمع حوله نمل كثير فيأخذه وينفضه في الماء ويفعل ذلك مرات عديدة حتى ينقطع أصل النمل من داره .. فإذا فرغ من القضاء على النمل أخذ العظم ووضعه في النار مستخدماً إياه كحطب فكأنه لا يضيع شيئاً مطلقاً دون الاستفادة منه ..

وكان إذا جلس يأكل الرأس أجلس معه ابنه على المائدة وحذره قبل أن يمد يده للأكل تحذيراً شديداً وكان من ضمن ما يقوله له : إنما حقك ما كان بين يديك أو قريب منك فكله ولا تمد يدك إلى ما ليس لك .. واعلم أنه إذا كان في الطعام شيء طيب أو طريف أو لذيذ فهو للشيخ الكبير أو للطفل الصغير ولست منهم ..

ومن أقواله الغريبة أنه يقول : مدمن اللحم كمدمن الخمر وكان يحذر الناس من الذبح والتعود على أكل اللحم وكان قد رأى رجلاً يأكل لحماً فقال له لحم يأكل لحماً يالله من عمل قبيح . وقد قال : أهلك الرجال الأحمران اللحم والخمر وأهلك النساء أحمران الذهب والزعفران .. ثم يعود لابنه ليقول له : يا بني عود نفسك الأثرة أي : تفضيل الآخرين عليك ومجاهدة الشهوة والهوى ، لا تنهش في طعامك نهش الأفاعي ولا تلقم في فمك لقم الجمال إن الله قد فضلك بجعلك إنساناً فلا تجعل نفسك بهيمة واحذر سرعة الغضب وامتلاء البطن .. واعلم يا بني أن الشبع يصل بك إلى التخمة والتخمة هي باب السقم والأمراض وهنا تفتح بيديك الباب للموت والهلاك ومن مات كذلك فقد مات ميتة لئيمة وهو قاتل نفسه ، وقد قال الله عز وجل : ﴿ **وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ** .. ﴾ .. ولو سألت أشهر الأطباء لقال لك إن عامة أهل القبور إنما ماتوا من التخم وقد قالوا قديماً : أكلة وموتة .. وخذ قول من قال : رب أكلة تمنع أكلات . وقال الحسن : يا ابن آدم كلْ في ثلث بطنك واشرب في ثلث بطنك ودع الثلث للتفكير والتنفس ، وكان بكر بن عبد الله يقول : إنني آكل ما لا أغسل

يدي منه لقلة أكله .. يا بني اعلم أن صاحب البطن الذي يأكل كثيراً لا يمكنه أن يؤدي حق الله في الركوع والسجود فالصوم مصحة وقد قيل إن الداء هو إدخال الطعام على الطعام .. يا بني لم قويت صحة الرهبان في الصوامع مع طول الإقامة ولم يعرف النقرس أو الروماتيزم أو الأورام طريقها إليهم .. السبب قلة الطعام وخفة الزاد مما يؤكل .. ألا تذكر قول رسول الله ﷺ : « الصوم وجاء » أي : وقاية وحفظ فالجوع حجاز بين الشهوات ..

وأخيراً يقول أبو عبد الرحمن لولده : أي بني قد بلغت تسعين عاماً ما نقص لي سن ولا تحرك لي عظم .. أي : انكسر ولا انتشر عليَّ عصب أي : سَبَّب لي ألم ولا عرفت طنين أذن ولا سيلان عين ولا نزول البول دون أن أتحكم فيه .. ما لذلك سبب إلا تخفيف الطعام وقلة شهوتي له ، فإذا كنت تحب الحياة فهذه سبيل الحياة وإن كنت تحب الموت فأنت وما شئت .. هذه كانت وصيته لابنه عندما أجلسه معه ليأكل الرأس ويالها من أكلة .. كل هذه النصائح من أجل أكلة رأس أما بقية عياله فقد أنقذوا أنفسهم من كل هذا واكتفوا بمص العظم ..

أما عاداته في شراء الرأس فهي قصة أخرى .. فكان لا يشتري الرأس إلا في أواخر أشهر السوق ليكون الدماغ فيه أوفر كما كان لا يشتري إلا رأس خروف فتى صغير لوفرة دماغه وكبرها .. وكان من عادة العرب أن يربطوا ما بين أوجه القمر وبين الذبيح كما كانوا يربطون أوجه القمر أيضاً وولادة الأطفال فكانوا يزعمون أن النطفة لو وقعت في الرحم في أول الهلال خرج الوليد قوياً ضخماً أما إذا كانت والقمر محاقاً أي : غائباً خرج الوليد ضئيلاً هزيلاً .. وكان أبو عبد الرحمن يشتري الرأس يوم السبت لأن الجزارين يذبحون يوم الجمعة فتكثر الرؤوس يوم السبت وكان العوام من الناس والتجار وغيرهم لا يأكلون الرؤوس يوم السبت لأنهم قد أكلوا لحماً يوم الجمعة ، وبعضهم

لا يزال عنده لحم متبقي فيزهد في شراء الرأس لأنهم لا يمكنهم أن يجمعوا بين الرأس واللحم على مائدة واحدة ، ومن هنا كان شراء أبي عبد الرحمن للرأس يوم السبت لأنها بالتأكيد أرخص وأفضل لقلة المشترين وكثرة الرؤوس .. وكان يشتري من الرؤوس صيفاً وشتاء ففي الصيف لا يقبل الناس بكثرة على الرأس لشدة الحر فيكون لحمها أرخص أما في الشتاء فالناس يأكلونها لذلك كان يقلل من شرائها أو يقول رأس شتوي واحد مثل رأسين في الصيف ويعلل ذلك بأن البهيمة المطلقة تأكل الحشائش صيفاً من الحقول والوديان ليست كتلك المحبوسة شتاء تأكل العلف ..

أما وقد وقفنا على نصائح أبي عبد الرحمن وأفعاله فإننا نتعرف على واحد آخر لا يقل عنه بخلاً وشحاً ألا وهو العنبري .. بينما كان العنبري جالساً مع بعض أصحابه أقبلت عليه جارية أمه ومعها كوز فارغ وقالت له : تقول لك أمك أن تضع لها في هذا الكوز شربة ماء بارد فالجو اليوم حار جداً .. إلا أنه نظر إلى الجارية بسخرية قائلاً لها : كذبتي .. أمي أعقل من أن ترسل لي كوزاً فارغاً فنرده لها ملآناً .. اذهبي إلى بيت أمي فاملئيه بماء حار ثم تعالي هنا فرغيه واملئيه بمائنا البارد فيكون ماء بماء وشيء بشيء .. فهو هنا يضن بالماء البارد على أمه ولا يريد لها إلا أن تربح ما بين فرق الساخن من البارد أي : البرودة فقط ..

وكان العنبري جالساً يوماً وأمامه طبق به تمر كثير وكانت قطته تجلس أمامه فكان ما إن يأكل التمرة حتى يلقي بنواتها إلى القطة فتأخذها المسكينة وتمضغها ساعة ثم تلفظها فيأخذها مرة أخرى ندية .. وحدث أن رمى إلى القطة بنوى التمرة فمصتها ساعة ثم لفظتها إلا أنها أخذتها مرة أخرى وأخذت تمصها من جديد فما كان منه إلا أن صرخ فيها صرخة لو كانت قتلت قتيل ما فعل كما فعل ..

هذا ما كان من العنبري أما أبو قطبة فكان له تدبير حكيم في التوفير والتقتير فكان يؤخر تنقية بالوعته وتنظيفها إلى يوم المطر الشديد .. لماذا ؟.. لأنه كان يريد أن يشتغل لديه رجل واحد فقط لا رجلين فكان أبو قطبة ينظف بالوعته ويضع ما بها أمام البالوعة حتى يأتي المطر الشديد والسيل المنهمر ، فيأخذ في طريقه القاذورات إلى حيث القناة ويكون بذلك قد وفر مؤنة من يحمل هذه القاذورات إلى القناة وهي مسافة ٢٠٠ ذراع وكان يكفيه هذا درهمين لذلك كان ينتظر الشهر والشهرين حتى تمطر السماء فيعمل ما ذكرناه حتى ولو جرت القاذورات في الطريق وتأذى بها الناس ..

وكان يوماً حيث كان عامله يرفع القاذورات من بالوعته أن قال لأصحابه : انظروا إلى هذا الوسخ .. ألا تروا أن البط ولحم الشاة والدجاج والخبز وكل ما طاب من الطعام يكون مقامه هكذا .. فلماذا إذن يُغالى في شيء هذا هو مصيره ونهايته فها هو يستوي والقذر شيئاً بشيء ..

ومن النوادر التي يذكرها العرب أن بعض النوة العجائز قد اجتمعن في مآتم وأخذت كل واحدة منهن تذكر كيف ينفق أولادها عليها .. كل هذا وواحدة منهن هي « أم فيلويه » جالسة صامتة وكل النوة يعرفن أن ابنها « فيلويه » يظهر النسك إلا أنه كان شديد البخل ، ولما طال سكوتها سألوها عن كيفية إنفاق ابنها عليها فقالت : كان يرسل لي في كل عيد أضحى درهماً وقد قطع هذا الدرهم أيضاً فما عاد يرسل لي شيئاً .. فتعجب النوة وقلن لها : ما كان يجري عليك إلا درهماً فقط .. قالت المرأة العجوز : نعم ولربما أدخل أضحى في أضحى أي : بالمعنى الآخر أهمل سنة ودفع أخرى .. درهماً في سنتين وهذا هو والله شر البخل والعياذ بالله ..

أحاديث عن البخل والبخلاء

نرى الآن صورة أخرى من صور البخل ، ذلك الرجل الذي يقلب الأمور كلها لتخدم ما يعتقده ويؤمن به ، فالرأي ونقيضه يستويان عنده ولكل حجته وبرهانه ولكن لكي يخدم كل هذا ما جبلت عليه طبيعته في البخل ، هذا الرجل هو تمام بن جعفر .. كان تمام بخيلاً في طعامه شديد البخل حتى أنه يقبل على كل من أكل خبزه ويلصق به كل سبّة وعلة ويطالبه ما حي بكل طائلة لديه .. ولنرى الآن منطقه وحججه .. إن قال له واحد من الناس : إنه ما في الأرض ما يستطيع أن يمشي مثلي ولا هو أقوى مني ، يقول له تمام : وما يمنعك من ذلك وأنت تأكل أكل عشرة وهل يحملك إلا بطنك وأكلك .. قبحت من شخص وقبحت أعمالك .. أما إن قال له أحدهم : إنني والله لا أقدر على المشي لأنني أضعف الخلق وإنني لو مشيت ثلاثين خطوة لتعبت وأجهدني السير .. يقول له تمام : كيف بالله تمشي وقد جعلت في بطنك طعاماً يحمل عشرون حمالاً وهل ينطلق الناس إلا مع خفة الأكل وأنت وبطنك ممتلئة ، كيف تقدر على الحركة وكيف يمكنك السجود والركوع ..

وإن شكى أحدهم ضرسه قال له تمام : إنني أعجب كيف تشتكي ضرساً واحداً ولم تشتكي الوجع كل ضروسك ، فأي ضرس يقوى على الطحن والمضغ باستمرار والله إن الأشياء القوية لتكلّ من كثرة العمل وإن الدق عل الحديد يطرقه ويثنيه فما بالك بضرس لا تريحه ولا تمنحه فترة يخلد فيها إلى الراحة ، ارفق بنفسك فإن الرفق ينجي من العلل .. وإن قال له واحد : والله ما اشتكيت ضرساً لي قط ولا تخلخل لي سن عن موضعه .. قال له تمام : يا مجنون ، إن كثرة المضغ تقوي الأسنان وتشد اللثة وإعفاء الضروس من المضغ يريحها وإنما الفم جزء من الإنسان نفسه إذا تحرك وعمل قوي وإذا طال

سكونه استرخى وفسد فكذلك الأضراس ولكن عليك بالرفق فإن التعب ينقص القوة ويهد الصلب ولكل شيء مقدار ونهاية .. ولو قال له أحدهم : والله إنني أشرب من الماء وما في الدنيا أحد أشرب للماء مني .. يقول له تمام : الماء ضروري لكل شيء والحاجة منه على قدر كثرته وقلته والله لو شربت ماء الفرات لما استكثرته لك مع ما أرى من شدة أكلك وعظم لقمتك .. أتدري ماذا تصنع بنفسك : إنه الضرر وأي ضرر .. وإن قال قائل : ما شربت اليوم البتة وما شربت أمس إلا مقداراً ضئيلاً من الماء وما في الأرض إنسان أقل مني شرباً للماء . قال له تمام : لأنك لا تترك مكاناً لشرب الماء فأنت تملأ بطنك بالطعام حتى يصل إلى جوفك فأين سبيل الماء في هذا .. والمفروض حتى لا تتخم أن تشرب الماء على المائدة حتى تعرف مقدار أكلك فلا تتجاوز إلى حد التخمة ، وإن قال أحدهم : إنني لا أنام الليل كله من الأرق يقول له تمام : كيف تنام وبطنك منفوخ من الطعام ثم تقوم الليل بين وقت وآخر لتشرب ثم تتبول ومن كان شربه وبواله كثير فكيف به ينام ، وإن قال قائل : ما أنا إلا أن ألقي رأسي على السرير حتى أنام كأنني الحجر إلى الصباح .. يقول له تمام : ذلك لأن الطعام يخدر ويسكر وعليه يسترخي البدن ولو كان الحق لكنت نمت الليل والنهار .. وإن قال له واحد : أصبحت وأنا لا أشتهي شيئاً .. يقول له تمام : إياك وأن تأكل قليلاً أو كثيراً فإن أكل القليل على غير شهوة أضر من الكثير مع الشهوة .. ثم كيف تشتهي الطعام اليوم وقد أكلت في الأمس طعام عشرة أشخاص ..

وكان يقول إن الناس يمدحون بعضهم البعض بقلة الأكل وقلة الشهوة إلى الطعام .. وقد ساب أي سب رجل أيوب بن سليمان بن عبد الملك فكان من ضمن ما سبه به قوله : ماتت أمك من فرط الأكل ومات أبوك تخمة .. ولعمرنا ما رأينا أحداً كان يفتخر بأكل أبيه فيقول كان أبي آكل العرب ..

وفي أحد المرات كان تمام يشرب الخمر وبينما كان المغني ينشد أصيب تمام بلوثة من شدة إعجابه بالطرب ، فقطع قميصه ومزقه من فرط استحسانه لهذا الطرب ، ثم قال لخادمه وهو بجانبه وكان الخادم يدعى المحلول .. قال له : قطع قميصك أنت أيضاً .. فقال له المحلول : لا والله لا أقطعه وأنا ما عندي غيره .. قال له تمام : قطعه وأنا أكسوك غيره غداً .. فقال له المحلول : إذن أشقه لك غداً .. فقال له تمام : وما أصنع بتقطيعك له غداً .. فقال له المحلول : وما الفائدة من تقطيعه الآن .. فكان تمام وخادمه المحلول آية من آيات العجب ..

ومن النوادر التي يذكرها العرب في البخل أن أحدهم وكان يعرف بعليّ الأعمى ـ كان أعمى بالفعل ـ دخل على يوسف بن كل خير وكان يوسف قد تغدى فقال يوسف لجاريته : هات لعليّ الغداء .. قالت : لم يبق عندنا شيء .. فقال لها : هاتي ما عندك فليس لأبي الحسن ـ يقصد عليّ الأعمى ـ حشمة .. يعني أنه ليس غريباً ، والحشمة هنا هي أطايب الطعام ولذائذه .. بيد أن عليّ الأعمى كان متفائلاً فلم يشك في أن الجارية ستأتي برغيف عليه طبيخ ورقاقة عليها دسم وبعض الثوربة وقطعة لحم هي ما تبقى من غدائهم فضلاً عن بقايا الحلوى وغيرها .. ولكن الجارية جاءت بطبق ليس عليه إلا رغيف أزرق قاحل من عتقه وقدمه ولا شيء غيره فلما وضعوا المائدة أمامه وعليها هذا الطبق به الرغيف الأزرق مد يده فلم يجد سوى هذا الرغيف وكان من عادته أن يقول على القليل من الطعام : « ليس فيه حشمة » إلا أنه عندما لم يجد شيئاً قال : ويلكم .. لقد رفعتم الحشمة كلها ..

ومن قصصهم في البخل أن غزّالاً أي من يصنع القماش .. كانت له قطعة أرض أمامها محل له ، فأراد أن يخفف عن نفسه مؤنة تملكه للأرض فأجر نصفها والمحل لسمّاك وهو من يبيع السمك ، وكان الغزّال هذا أعجوبة في البخل

فكان يجيء كل يوم من بيته ومعه رغيف وكان معظم أيامه يأكل هذا الرغيف كما هو دون أي غموس فإذا أراد أن يغير ويترف نفسه اشترى من السماك سمكة مملحة وأسقط حسابها فلساً من حساب السمّاك عنده ، فإذا أراد أن يتغدى فإنه يمسح بالسمكة المملحة وجه الرغيف ثم يأكله وكان في بعض الأحيان يفتح بطن السمكة فيبرز ما في جوفها ، فيمسح هذا البطن بلقمة من الرغيف وراء لقمة فإذا ما فرغ طلب من السمّاك قليلاً من الملح فيملأ به بطن السمكة حتى تعود كما كانت .. بطن منتفخة .. وكأن هذا هو ملحها الذي ملحت به .. وكانت أحياناً تغلبه شهوته فيقطع طرف السمكة من أنفها أو قطعة من لحم رأسها ويكون ذلك في آخر لقمته حتى يطيب فمه بها ، ثم يضعها في ناحية فكان بعد ذلك إذا اشترى من امرأة غزلاً ليغزله أدخل ثمن هذه السمكة في ثمن الغزل فكأنه لم يشتر شيئاً وكأن السمكة بيعت بلا ثمن ولم يدفع شيئاً ..

وقد روي أن عبد الله بن المقفع قال : كان ابن جذام الشيبي يجلس إليّ وكان في بعض الأحيان ينصرف إلى منزلي فيتغذى ويجلس إلى ما يشاء .. وكنت أعرفه بشدة البخل وكثرة المال وكان يلح عليّ كثيراً لزيارته وصممت أن أمتنع عن هذه الزيارة ولكنه ألح وقال لي : أتريد أن توفر لنا ثمن طعامك ؟.. ما هي إلا كسيرات من خبز وملح وماء .. لم أصدق بالطبع أن يقصد ما يقول وظننت أنه يريد أن يهون الأمر على نفسي ، فمثلاً قد يقول الرجل : يا غلام إحضر كسرة خبز وبعض التمرات فيحضر الغلام عدداً لا بأس به من الأرغفة وطبقاً مملوءاً بالتمر فالقليل هنا على سبيل المجاز وما كنت أظن ـ والكلام لابن المقفع ـ أن أحداً مثلي يمكن أن يعامل بمثل هذه المعاملة .. فلما صرت عنده صدق ظني في بخل الرجل وشحه فلم يقدم إلا ما قال .. وبينما نحن جلوس إذ جاء شحاذ يسأله الطعام فقال الشحاذ : أطعمنا مما تأكلون جعل الله طعامكم من طعام الجنة .. فقال له ابن جذام : بورك فيك .. فعاد الشحاذ وكرر كلامه فقال له ابن جذام بنفس الجملة وعاد السائل

يلح ويقول : سبحان الله ما رأيت أحداً يرد سائل من طعام بين يديه .. قال له ابن جذام (صارخاً) : ويلك إذا لم تذهب الآن لأخرجن إليك وأدق رأسك .. قال السائل : الله سبحانه نهى أن يُنهر السائل وأنت تدق رأسه فقال ابن المقفع : نظرت إلى الشحاذ وقلت له هامساً : اذهب وأرح نفسك فأنت لو تعرف صدق كلامه كما عرفته اليوم لما وقفت على بابه لحظة ولا جئته لسؤال من البداية ..

أما أبو يعقوب الدقنان فكان يقول : ما فاتني اللحم منذ ملكت مالاً .. أي أنه لم يمر عليه وقت إلا وكان يأكل فيه اللحم منذ أن أصبح لديه مال .. فلنرى ماذا كان يصنع .. كان إذا جاء يوم الجمعة اشترى لحماً بدرهم وبصلاً بدانق ـ جزء من الدينار ـ وباذنجان بدانق وقرعة بدانق وجزراً بدانق ثم يطبخ كل هذا في قدر واحد شيء ما أشبه باليخني في زماننا هذا ، بعد أن يطبخ ذلك يأكل هو وعياله بعضاً مما في القدر بالخبز وما يتبقى يتركوه ، فإذا كان يوم السبت أخذ المرق أو شوربة هذه الطبخة فقطعوا فيها خبزاً فأكلوه ، فإذا كان يوم الأحد أكلوا البصل ويوم الاثنين أكلوا الجزر فإذا كان يوم الثلاثاء أكلو القرع ، فإذا كان يوم الأربعاء أكلوا الباذنجان حتى يأتي يوم الخميس فيأكلوا اللحم .. لهذا كان يقول ـ ومعه الحق ـ ما فاتني اللحم منذ ملكت مالاً ..

ويمضي بنا الجاحظ في رحلته مع بخلائه ولكنه بين حين وآخر يعرض علينا آراءه عن البخل فنراه يقول : إن البخلاء هم من يجمعون بين البخل واليسر أي أنهم يملكون المال ، ولكنهم في الوقت نفسه يضنون به على أنفسهم ويعيشون حياة الفقر المدقع .. فأما من يضيّق على نفسه لأنه لا يعرف إلا الضيق أو لأنه لا يملك ما يسر به نفسه فإنه لا يعد من البخلاء ولكنه يعد ممن ساء حالهم بين الناس ..

قال المكي ـ وهو صديق الجاحظ ـ كان لأبي عم يدعى سليمان الكثري وسمي بالكثري لكثرة ماله وكان يحتضنني وأنا صغير إلى أن بلغت ، ولكنني لم أذكر أنه منحني شيئاً أو وهب لي مما يملك شيئاً .. وكان بخيلاً شديد البخل .. دخلت عليه يوماً فوجدته جالساً وأمامه بعض من قطع الصيني التي تساوي قيراطاً ، والقيراط هذا أقل من الدينار في قيمته ، ولما اقتربت منه ورأيت الصيني حاولت أن أمد يدي لأتناول واحدة منها إلا أنه نظر إليّ فقبضت يدي دون أن آخذ شيئاً فقال لي : لماذا سحبت يدك ، هيا أرسلها وخذ قطع الصيني ، إنها كلها لك وإنني بها قد سمحت لك وأنا مسرور غاية السرور بما أردته من كل ممتلكاتي الواسعة فهو لك .. يقول المكي : فلما سمعته يقول ذلك لم آخذ شيئاً وتركته وسافرت إلى العراق فما رأيته بعدها ولا رآني حتى مات .. وكان سليمان الكثري يُعاتب لأنه دائماً عبوس لا يضحك .. فقال رداً على من عاتبه : إن الذي يمنعني من الضحك أن الإنسان أقرب ما يكون إلى الكرم والسخاء إذا ضحك وغلبه السرور ..

يقول الجاحظ : إنه كان يصلي بمسجد الجامع ليلاً وكان برفقته محفوظ النقَّاش ، ولما أصبح الجاحظ بجانب منزل محفوظ سأله أن يبيت عنده وقال له : أين تبيت والدنيا ليل وهناك مطر وبرد ومنزلي هو منزلك وعندي حلوى جيدة لم يراها أحد وعندي تمر يفوق كل ما عرفته من التمر فذهب معه وبعد قليل أحضر الحلوى والتمر .. فلما أراد الجاحظ أن يمد يده ليتناول شيئاً مما قدمه قال له محفوظ : يا جاحظ .. إنها حلوى وتمر ونحن في أول الليل والجو رطوبة وبرد وأنت رجل طاعن في السن تشكو من شلل في أطرافك وتعب في جسمك ، وأنت في الأصل لا تتعشى فإن أكلت من الحلوى ولم تأكل كثيراً حتى لا تتعب فكأنك أكلت ولم تأكل بل على العكس تكون قد حركت شهوتك ولم ترضها .. وإن أكلت كثيراً أتعبت صحتك ، هذا وبت ليلتك تشكو

وجلسنا معك نداويك بما في هذا من مشقة .. وإنني أقول لك هذا الكلام وأنا في حيرة من أمري .. لأنني لو لم أحضر لك الحلوى والتمر لقلت عني الكثير واتهمتني بالبخل والشح وإن جئتك به ولم أحذرك منه قلت : لم يشفق عليَّ ولم ينصحني وتركني أعاني سوء الطعام على صحتي ، وأنا أردت أن أبرأ من الأمرين معاً وأنت وما شئت فكلْ ولكن لا تنسى أنها أكلة وموتة ، وإن شئت فبعض الاحتمال ونوم على سلامة أفضل .. إلا أن الجاحظ تركه يقول هذا كله ثم ضحك كما لم يضحك من قبل ثم أقبل على الحلوى والتمر فأكلها جميعاً لم يترك منها شيئاً .. وكأن الضحك الذي ضحكه قد هضم كل ما تناوله جميعاً .. طبعاً صاحبنا ـ محفوظ ـ بات والغيظ يقتله ونكد الدنيا يطويه طياً ..

ونأتي لذكر أبي القماقم .. وأبو القماقم هذا كان عجباً .. نراه يقول : أول الإصلاح ألا ترد ما صار في يدك .. لأن ما صار في يدك هو لك .. وإن لم يكن لك فأنت أحق به ممن صيره في يدك .. فمن أخرج شيئاً من يده إلى يد غيره بغير ضرورة فقد أباحه له .. أما نوادره فمدهشة .. جاءته امرأة ذات يوم وقالت له : يا أبا القماقم ، لقد تزوجت زوجاً لا يزورني إلا في النهار وقد جاء وقته ، وأريد أن أكون في حال حسنة وهيئة طيبة فخذ هذا الرغيف واشتر به عطراً وخذ هذا الفلس ـ عملة سائدة عند العرب ـ واشتر به كحلاً .. لعلي بهذا أرضيه وأنا امرأة مسكينة لا حول لي .. فغاب عنها أبو القماقم وما حضر حتى رأته بعد أيام فقالت له : ماذا فعلت قبحك الله .. ألا تدري ما فعلت بي ، فقال لها أبو القماقم : ماذا أفعل لقد ضاع مني الفلس فلأني الغم فأكلت الرغيف ..

وعشق أبو القماقم امرأة فكان يتبعها أينما سارت وكان يبكي بين يديها حتى حنت عليه ، وكانت مكثرة كريمة بينما كان هو مقلاً بخيلاً فكان يطلب منها

أن تهديه هريسة ، وبعدها بعدة أيام طلب منها أن تهديه رأس شاة ، وبعد عدة أيام طلب تمراً .. فقالت له : رأيت عشق الناس يكون في القلب وفي الكبد وفي الأحشاء إلا عشقك أنت فإنه يسكن المعدة لا يبارحها ..

وأراد أبو القاقم أن يخطب امرأة وأخذ يسأل القوم عنها وعن مالها وأخذ يحصي مالها ويعده حتى قال له القوم : قد أجبناك عن مال المرأة ، فما تملك أنت من مال .. قل لهم : وما سؤالكم عن مالي .. ما عندها يكفيني ويكفيها ..

وكان أحد شيوخ قبيلة الأبله يزعم بأن فقراء أهل البصرة أفضل من فقراء أهل الأبله .. فسأله الجاحظ عن السبب .. فقال الشيخ : لأن فقراء أهل البصرة أكثر تعظيماً لأغنيائهم وأعرف بالواجب .. وقد وقع خلاف بين رجلين من قبيلة الأبله .. فسب أحدهم الآخر فرد عليه الآخر بنفس السب إلا أن القوم من قبيلة الأبله أنكروا عليه ذلك فتعجب الجاحظ وقال : ولما تنكروا عليه ذلك لقد سبّه الرجل فرد سبّه بسب فهو شيء بشيء .. قالوا له : لقد أنكرنا ذلك لأن الرجل الأول أكثر من الثاني مالاً وهذا لا يجوز له ولو جوزنا ذلك له ، جوزنا لفقرائنا أن يكافئوا أغنياءنا وفي هذا الفساد كله ..

نعود إلى سير البخلاء ونرى أحدهم ويدعى أحمد بن الخاركي وكان بخيلاً إلا أنه مع البخل كان نفاجاً أو نفاخاً أو بمعنى آخر فشاراً .. فكان يلبس جبة عليها أربعة أزرار ليرى الناس أن عليه جبتين ، وكان يشتري الحطب والبرسيم وسعف النخل ويجعل الحمّال يحمله إلى دار بيته ، حتى إذا ما حمله هناك تركه ساعة حتى يوهم من يراه بأن له أرضاً واسعة أحضر منها هذه الأشياء ، وأحياناً كان يترك الحمّالين بالباب ويتركهم يصيحون حتى يراهم الناس ويعرفوا أنه يشتري ويحضر من يحملون له .. وكان في أحد الأيام مع بعض أصحابه ومر به بعض الباعة وهم ينادون : الخوخ .. الخوخ .. فقال واحد من

أصحابه .. وهل جاء الخوخ بعد .. فرد عليه أحمد بن الخاركي وقال : نعم وقد أكثرنا منه .. فاغتاظ صاحبه مما يعرف عنه من البخل والنفخة الكذابة .. فقال له : ويحك .. نحن لم نسمع بالخوخ أنه ظهر بعد وأنت تقول : أنك أكثرت منه وأنت تعلم أن كل من معنا أترف منك وأكثر إنفاقاً .. ونادى هذا الصاحب المغتاظ البائع وسأله .. بكم تبيع الخوخ ؟.. رد البائع : ستة بدرهم .. قال صاحبه لأحمد : أنت ممن يشتري ستة خوخات بدرهم .. ثم تقول وقد أكثرنا منه وهذا يقول ستة بدرهم ، فقال له أحمد بمنتهى الهدوء : وأي شيء أرخص من ستة أشياء بشيء واحد ..

وقد قيل أن أحدهم ويسمى موسى بن جناح كان قد دعى جماعة من جيرانه لكي يفطروا عنده في رمضان ، وبعد أن فرغوا من صلاة المغرب .. جاء ابن جناح وقال لهم : لا تتعجلوا فإن العجلة من الشيطان وقد قال الله عز وجل : ﴿ **وَكَانَ الإِنْسَانُ عَجُولاً** ﴾ وقال سبحانه : ﴿ **خُلِقَ الإِنْسَانُ فِي عَجَلٍ** ﴾ اسمعوا قولي أولاً قبل أن تأكلوا لأن قولي فيه حسن المواكلة والبعد عن الإثرة وحب الذات .. فإذا جاء أحدكم يشرب ماء والأكل من السهل الذي ينزل سريعاً إلى البطن دون ماء ، وهو يحتاج من الشخص إلى يد واحدة لا يدين لكي تأكلوه فهو لا يحتاج إلى مضغ ، فعليكم أن تقفوا عن الأكل حتى يفرغ صاحبكم من شرب الماء فتعاودوا الأكل بعد ذلك .. فإنكم بذلك تردون أموراً كثيرة لا يخفى خطورتها فلربما أحس صاحبكم أنكم قد أسرعتم في الأكل وهو يشرب الماء فأسرع فوقفت اللقمة في حلقه فمات .. أو يحرص بعد ذلك فيعظم من اللقمة وما في ذلك من خطر .. وقد قيل لأعرابي : لِمَ تبدأ بأكل اللحم الذي فوق الفتة ؟ فقال : لأن اللحم ضائع أو مأكول سريعاً بينما الفتة موجودة ومقيمة .. وأنا ـ الكلام لابن جناح ـ وإن كان الطعام طعامي فأنا أفعل ذلك .. وكانوا بينما هم في أكلهم ومد واحد منهم يده إلى الطبق ليأكل

بينما صاحبه مد يده إلى الماء ليشرب فأمسك ابن جناح يده وقال له : يدك يا ناسي ولولا أدبي لقلت لك يا متغافل .. وبعد أن فرغوا من أكلهم أحضر لهم قطعة صغيرة من البطيخ نثروا عليها مقدار نصف سكرة ، فأخذ واحد من ضيوفه قطعة صغيرة وأخذ يمضغها فعملت صوتاً وكان ابن جناح بجانبه فضرب بيده على كتف الضيف وقال له : امضغ يا أبا كعب .. امضغ .. فقال له أبو كعب بغيظ : ويلك .. أما تتقي الله .. كيف أمضغ جزءاً لا يتجزأ ..

من ابن العقدي إلى الدردريشي

ونروي لك ذكرهم ونوادرهم .. ابن العقدي هذا كان قضية ومشكلة في البخل .. ترى ماذا كان يفعل ؟.. كان يأخذ أصحابه وضيوفه لزيارة بستان ويشتري لهم أرزاً بقشره ويحمله معه .. ليس معه إلا ذلك الأرز مما خلق الله من الطعام والشراب ، فإذا ذهبوا إلى بستانه كلّف حارسه بأن يذري هذا الأرز ويزيل عنه قشره ثم يغربله وينقيه وينظفه ، فإذا فرغ من كل هذا كلّفه بطحنه حتى إذا ما طحنه طلب منه أن يغلي الماء ويحتطب له من أشجار البستان ويصنع من هذا الدقيق خبز أرز .. وقبل أن يطلب من حارس بستانه أن يفعل له ذلك يكون قد طلب من أصحابه أن ينصبوا البوص في الماء لاصطياد السمك ، فإذا اصطادوا وغالباً هم لا يصطادون ولا حتى سردينة صغيرة .. المهم إذا اصطادوا فإنه يجعل السمك فوق مكان خبز الأرز أي : طابق فوق طابق حتى لا يحتاج لمزيد من الحطب فلا يزال أصحابه وضيوفه من الصباح الباكر حتى يدخل عليهم العشاء وهم بين صيد وغربلة وطحن وخبيز حتى يهنأوا أخيراً بأكلة خبز أرز أسود غير منخول وبعض السمك إن أكرمهم الله به ..

وقد حكى المكي أنه قد بات عند إسماعيل بن غزوان ولقد رضي إسماعيل أن ينام عنده المكي بعدما عرف أنه قد تعشى عند « مويس » فهو لن يكلفه عناء العشاء ، فلما مضى من الليل أكثره وغلب المكي النوم أراد أن ينام على البساط المفروش وأن يضع يده تحت رأسه ولم يكن في البيت كله إلا البساط ومخدة واحدة ، أصر إسماعيل أن ينام عليها المكي وأبى المكي وأبى إسماعيل ، كل منهم يريد للآخر أن ينام عليها وأخيراً نام المكي عليها إلا أنه لفرط يبس المكان وتغيير مكان نومه لم ينم فظن إسماعيل أن المكي قد نام فجاء بهدوء وحاول أن

يأخذ المخدة من تحت رأسه ، فلما رآه المكي قد مضى بها ضحك وقال : لقد أردت أن أتركها لك أول الليل وكنت أنت في غنى عن ذلك .. فقال إسماعيل : لقد جئت لأسوي رأسك .. فقال المكي : إنني تركتك حتى أخذتها ومضيت بها فكلمتك .. قال إسماعيل : لقد جئت من أجل هذا فلما صارت المخدة بين يدي نسيت ما جئت له وأخذتها ..

وكان المكي قد قال لإسماعيل ذات مرة : لم أر أحداً قط أنفق على الناس ماله فلما احتاج إليهم ساعدوه ووقفوا بجانبه .. فقال إسماعيل : لو كان ما يصنعونه متفقاً مع الحق ويرضي الله ، لما جمع الله لهم من الغدر واللؤم من كل أقطار الأرض ولو كان إنفاقهم على الناس في حقه لما ابتلاهم الله جل ذكره عن جميع خلقه ..

وقد قيل إن أحدهم قد أعد عرسه فجعل كل طعامه في ليلته من الحلوى فقال له الناس : إن الكلفة هكذا تزيد والإنفاق يكثر فقال (حزيناً) : وماذا أفعل إنني أنفق كل هذا من أجل راحتي .. لعن الله النساء .. إن طاعتهن شر منهن ..

أما الآن فإننا مع بخيل غريب الأطوار .. هل سمعنا عن واحد يناجي الدرهم كما يناجي المحب معشوقته ويغازلها .. فلنقرأ إذن .. لقد صار هذا الرجل إماماً للبخلاء وزائداً لهم .. إنه عندما يصل الدرهم إلى يده يناجيه فيقول له وقد أخذه العشق والصب : كم من أرض قطعت وكم من حافظة فارقت وكم من عظيم قد وضعت وكم من خامل رفعت لك عندي أن لا تضيع ولا يضحى بك ، ثم يلقيه في كيسه ويقوله له : اسكن على اسم الله في مكان لا تهان ولا تذل ولا تزعج فيه .. وعُرف عنه أنه لم يدخل كيسه درهماً فأخرجه .. وقد ألح أهل هذا الرجل عليه في إنفاق درهم من ماله وأخذ يماطلهم ويلحوا عليه حتى قال لهم درهم واحد فقط .. فلما أعطاهم إياه ومضى

في طريقه قابل أحد الحواة وهو يلف ثعباناً حول رقبته من أجل درهم يأخذه فقال لنفسه .. هكذا ببساطة أضيع شيئاً تنفق فيه النفس والروح ورجع إلى أهله فحصل على الدرهم مرة أخرى .. فكان أهله منه في نكد وبلاء يتمنونَ موته ويدعون الله بتعجيل أجله ، فلما مات وظنوا أنهم قد استراحوا منه جاء ابنه فاستولى على كل ماله وداره ثم قال : أي غموس كان أبي يصنع فيه لقمته فإن أكثر الفساد يكون في الغموس ..؟.. فقالوا : كان يضع لقمته في قطعة الجبن هذه فلما رآها وجد فيها حفرة في منتصفها ، فسأل فقالوا له : كان يمرر لقمته مرة بعد مرة حتى تكونت هذه الحفرة في قطعة الجبن .. قال : بهذا أهلكني والله لو عرفت عنه ذلك ما صليت عليه .. أي : أنه لا يرضى بما كان يفعله أبوه ويعتبره نوعاً من الترف والإسراف .. وهنا قال له الناس : وأنت ماذا تريد أن تصنع ؟.. قال ابن البخيل ـ ومن شابه أباه فما ظلم ـ أضع قطعة الجبن على بعد وأشير عليها بلقمتي ..

يقول الجاحظ تعليقاً على ذلك .. إن هذه مبالغة قد لا تصدق وإن كان قد نقلها كما سمعها .. بيد أن الإنسان في غالب الأحيان هو ابن بيئته يمتص آدابها ومعاملتها صبياً صغيراً ، وتصبح طبعاً له ودستوراً عند كبره ، وهذا يفسر اكتساب الابن لطبع أبيه ومسلكه في البخل .. بيد أن قصة الابن فعلاً قد صادفت مبالغة غير مقبولة ..

ومن قصصهم الطريفة أن تاجراً يبيع التمر كان بالمدائن وكان يعمل لديه صبي وكان هذا الصبي إذا دخل إلى الدكان غاب ، فشك فيه التاجر وظن أنه يأكل التمر ولكنه لم يستطع أن يمسك عليه دليلاً ، حتى جاء يوم سأله فأنكر الصبي فأحضر التاجر قطعة من القطن الأبيض وأمر الصبي أن يمضغها بين أسنانه فلما مضغها وأخرجها وجد فيها حلاوة وصفرة فعرف أن الصبي يأكل التمر وطرده من المحل قائلاً له : كل يوم وأنت تعمل عملتك وتأكل التمر ..

اخرج ولا تعد ..

أما الدردريشي فكان غنياً إلا أنه كان بخيلاً .. وكان إذا طلب منه شحاذ حسنة نهره .. وإذا جاء آخر نهره بحنق وعيظ حتى سأله صديق له يوماً : ما أبغض الشحاذة إلى قلبك ، أنت لا ترضى أن يسألك أحد ، قال الدردريشي : نعم .. انظر إليهم ترى أنهم أيسر حالاً مني ، وهم لو قدروا أن يهدموا داري لفعلوا ذلك ولو استطاعوا أن ينتزعوا حياتي لانتزعوها وأنا لو طاوعتهم وأعطيتهم ما طلبوا لصرت مثلهم منذ زمن ، فكيف لا أبغض من يريدني مفلساً لا أملك شيئاً ..

وكان للدردريشي أخ هو شريك له في المال والأملاك وكان بخيلاً مثله ، وقد كان في يوم جمعة وكان أصحابه جلوساً عند بابه عندما وضع بين أيديهم طبقاً به بلح لا يساوي إلا دنقين ـ والدنقين يساويان القرشين مثلاً من فلوس اليوم ـ المهم أنه بينما هم يأكلون إذ جاء أخوه فلم يسلّم ولم يتكلم ، حتى دخل الدار وقد كان في سابق عهده معهم بشوشاً ضحوكاً .. إذن ما سبب التغير ..؟.. لقد أنكر القوم عليه فعلته .. لا سلام ولا كلام .. المهم أن أخاه أيضاً لم يعرف السبب حتى كان يوم الجمعة التالي .. وجاء أيضاً أخوه ووجد الصحاب يجلسون وبينهم طبق البلح ، فدخل الدار كما فعل في المرة السابقة أي : دون سلام أو كلام .. حتى كانت الجمعة الثالثة .. كتب إلى أخيه يقول : يا أخي كانت شركة بيني وبينك .. ولست آمن أن يقع ولدي وولدك في مكروه ولنا أموال نصفها لك ونصفها لي ، ونحن لا نعرف ما هو لك وما هو لي فإن جلسنا وعرفنا ما كان بيننا نقاش ولا جدل .. والرأي أن نجلس اليوم ونحسم هذا الأمر ، ويعرف كل منا ما له وما عليه .. فلما قرأ أخوه الرسالة ، وأخذ يسأل نفسه عما فعل حتى يصل الأمر إلى فض الشركة وكل يذهب إلى حال سبيله ، وأخذ يسأل أولاده وزوجته ليرى هل أخطأ أحد في حقه ، فلما

لم يصل إلى نتيجة ذهب إلى أخيه يسأله عن السبب في فض الشركة ، وأخذ يحاوره ليعرف ذنبه ومضى نصف النهار وأخوه لا يخبره حتى دخل الليل واقتربا من نصفه والأخ لا يريد أن يفصح عن سبب طلبه للقسمة وفض الشركة .. فلما طال بينهما الحوار والكلام .. قال له أخوه : حدثني عن أطباق البلح وبسطك الحصر على الطرق وإحضارك الماء البارد وجلبك للناس في يوم الجمعة .. هل كنت تظن أنني لن أعرف أو أرى .. اليوم تطعمهم بلحاً وغداً حلوى ثم بعد غد لحماً ، ويتحول الغداء إلى عشاء ثم يصير إلى كساء حتى تهديهم الجديان ـ جمع جدي ـ والحملان ـ جمع حمل ـ والخرفان .. أي ظلم يقع على مالنا .. وهو مال تجارة جمعناه درهماً فوق درهم ودانقاً فوق دانق .. هل هذا يليق بك .. فقال له الدردريشي : هل تلومني على رطبة أكلها الناس .. عموماً لن أكلمهم بعد اليوم .. فقال أخوه : هل تريد أن تخطىء مرتين .. مرة في إطماعهم فيك ومرة في كسب عداوتهم .. أرى أن نفضها سيرة ولكل طريق .. وهذا ما كان بين الأخوين على طبق بلح وقليل من الماء البارد .. ولا تعليق ..

أبو سعيد المدائني .. بخيل عصره

يقول الجاحظ : إن كل لئيم بخيل .. وليس كل بخيل لئيم .. فكلمة اللئيم كلمة جامعة تشمل مع البخل قلة الشكر ومهانة النفس .. وهناك اللئيم الراضع .. فأما اللئيم فقد عرفنا من هو .. بقي أن نعرف من هو اللئيم الراضع .. هو الشخص الذي لا يحلب الجاموسة في إناء حتى لا يتشرب الإناء بعض اللبن ولكنه يرضع من البهيمة مباشرة فهو لئيم راضع أو بخيل مقتر ..

ولنتحدث الآن عن واحد هو إمام البخلاء في عصره وهو ذا منطق غريب ولكنه ـ بحق ـ مقبول ومعقول كذلك .. إنه أبو سعيد المدائني .. كانت له حلقة يجلس فيها بعض من أصحابه من بخلاء القوم وأغناهم كذلك .. وقد علموا أنه يذهب كل يوم إلى مكان بعيد لكي يطالب رجلاً بدين مقداره خمس دراهم ـ وهي مبلغ قليل جداً ـ بقيت عليه فقالوا : إن أبا سعيد مخطىء ولا شك .. لقد جعله التشدد في جمع ماله وحفظه يضيع على نفسه الخير الكثير من أجل هذه الخمسة دراهم .. فقالوا نواجهه حتى يعود إلى طريق الصواب .. وقالوا له : لقد أقدمت على أمر ما كنا نحسب أن مثلك يقع فيه .. ولقد قلبنا الأمر على أوجه عديدة فما وجدنا لفعلك سبباً معقولاً .. أولاً لأن هذه مجرد خمسة دراهم تجري وراءها وأنت في مثل عمرك ، وقد يمرضك هذا السعي اليومي فما ينفعك من هذا .. الأمر الثاني أنك تتعب من هذا المشوار الذي تقطعه كل يوم ولابد لك من أن تتعشى لتوازي هذا التعب ، ولابد أن يكون عشاؤك زائداً على قدر المشقة أو تراك تتعشى إذا كنت لا تتعشى قبل ذلك وكل هذا فيه كلفة ونفقة أنت في غنى عنه .. ثم أنك تمضي في السوق وتتعرض لأن يجذبك هذا وذاك وكل هذا يؤثر على ثوبك مما يعرضه للقطع أو التمزق أو قد يتسخ فيبلى من بعد جده ، كما أن نعلك قد تتقطع أو ينخرق .. إننا

نرى أنك تضيع الكثير من أجل القليل وما في هذا من حكمة عرفناها عنك ولمسناها فيك ..

هذه كانت حجج أصحابه من جهابذة البخل وأئمة التقتير والشح فماذا كان رده عليهم ؟.. لقد كان رده عجباً وأي عجب فلنرى ماذا قال أبو سعيد .. يقول لهم : أتخافون على بدني من العلة والمرض ونقص الوزن .. وهذا كله غير صحيح لأن الذي أخافه هو الدعة وقلة الحركة ، وكما تعلمون فليس هناك من هو أكثر صحة من الحمالين والطوافين .. وعلى العكس فإنني قد أمكث في البيت لوقت طويل فأكثر من الصعود والنزول على السلالم خوفاً من قلة الحركة ، أما قولكم بأنني قد انشغلت بمن لي عنده خمسة دراهم وهو بعيد وتركت من هو قريب مني ولي عنده مال .. أقول إنني لم أهمل القريب حتى أهتم بالبعيد ؛ بل أنا أسترد نقودي من البعيد بعد أن أفرغ من القريب .. أما عن زيادة أكلي لزيادة التعب فهذا أمر قد عودت نفسي عليه ؛ وهو ليس لنفسي أكثر مما أعده لها وهي إن زادت علي في تعبي فأكثرت من الأكل فإنني أحاسبها أيام الراحة وأنتقص بنفسي قدر الزيادة في الطعام .. أما ما ذكرتم من مزاحمة أهل السوق ومن اتساخ الثياب وتمزقها أقول لقد أعددت لذلك عدته فإنني أقطع السوق قبل أن يقوم أهل السوق ثم يكون رجوعي بعد انتهاء السوق .. أما خوفكم من تمزق نعل الحذاء فإنني عند خروجي من منزلي إلى أن أقرب من لي عنده الدين فإن حذائي في يدي حتى إذا اقتربت من منزله لبست الحذاء ، فإذا خرجت من داره خلعته حتى داري فأي تلف يمكن أن يصيبه .. قال لهم بعد كل ذلك : هل لكم حجة أخرى .. فقالوا جميعاً : لا .. فقال : ولكنني لدي حجة تفي بكل كلامكم هذا .. وهي باب في التعامل مع الناس أعلمكم إياه .. قالوا : وما هو ؟.. قال أبو سعيد : إذا علم القريب الدار والذي لدي عنده آلاف الدنانير بما أفعله مع البعيد وشدة مطالبتي له بالرغم

من تفاهة المبلغ الذي لي عنده ، أتى بحقي وأدرك أنه لا يمكن أن يطمع فيه أبداً .. وهذا تدبير يضمن لي رجوع مالي وعدم إطماع الناس فيما أملك وأستحق ..

وقد قيل لأبي سعيد : إنك كثير المال وأنت تعرف أموراً كثيرة نجهلها .. ومع ذلك فأنت تترك جلبابك وسخ فلماذا لا تغسله ؟.. قال أبو سعيد : لقد فكرت في هذا الأمر كثيراً وظهر لي في هذا الأمر وجهان .. الأول : أنني أقول لنفسي إن الثوب إذا اتسخ فإنه يأكل البدن كما يأكل الصدأ الحديد .. والثوب إذا امتلأ بالعرق ثم تراكم عليه الوسخ والأتربة فإنه يعفن وينتن وتظهر له رائحة وهو في كل أمر له مظهر قبيح .. ثم إنني رجل لي ديون وأذهب لأستردها فإذا شاهدني خدم مَنْ عندهم ديوني عاملوني كأنني قد جئت أستجدي وأسأل لا كمن يطالب بحقه .. وهذا كله ضرر لمالنا وملكنا .. وصلاح المال يستوجب فعل كل ما هو في سبيل جمعه وحفظه .. فإذا درست كل ذلك هممت بأن أغسل الثوب حتى إذا أقدمت على ذلك بالفعل رجعت وقلت لنفسي : إن غسل الثوب هو غرم ونفقة كثيرة .. كيف ؟.. ألا يتطلب هذا الغسل ماءاً وصابوناً وجارية تغسل الثوب ، وهي إذا غسلته كان من حقها أن تأكل .. ثم أن الصابون يأكل الثوب ويستهلكه فإذا أفلت من أثر الصابون تعرض للعصر والتنشيف والدعك وكل هذا له ضرره على نسيج الثوب وقماشه .. ثم إذا ما عرضنا الثوب للغسيل فإنني يجب أن أبقى بالمنزل حتى ينشف ويجف .. فإذا جلست في المنزل تكثر المطالب وتفتح علينا أبواب النفقة .. فإذا جف الثوب أرسلناه إلى الكوّاء لكي يكويه وهذا غرم فوق غرم .. فإذا فعلت كل ذلك ونظف الثوب وابيض ولبسته ظهر وسخ جسمي وطول شعري وكان ذلك من قبل موصولاً ببعضه ويؤدي ذلك بالطبع إلى دخولي الحمام لكي أغتسل وفي هذا نفقة كثيرة نحن في غنى عنها ..

المهم أنا أبا سعيد يستمر في عرض حججه حتى أن من روى حديثه نسي بعضها ونسي بعضها الآخر الجاحظ نفسه .. ولكن النتيجة أن أبا سعيد ارتضى أن يكون الثوب متسخاً لكي يغطي به جسماً هو أكثر اتساخاً ..

وكان أبو سعيد ينهى خادمه أن يخرج زبالته من منزله وكان يأمره أن يجمع كل زبالة الجيران ويضعها مع زبالته .. حتى يجمع الخادم كمية من الزبالة فيجلس ويفرزها فإذا كان بها الدرهم أو الدينار فخير وبركة وأمره معروف .. كذلك الحلي والمجوهرات كلها إلى خزانته .. أما الصوف فكان يبيعه وكذلك الخرق والثياب المهلهلة كان يبيعها .. أما قشور الرمان فيبيعها هي الأخرى للصبّاغين والدبّاغين ليستعملوها ضمن مواد الصباغة والدباغة .. والأكواب المكسورة لصناع الزجاج .. ونوى البلح ونوى الخوخ للزراع وأصحاب الغرس .. والمسامير وقطع الحديد للحدادين .. وقطع الخشب للحطابين .. وقطع العظام وقود .. وهكذا حتى لا يبقى من الزبالة إلا التراب خالصاً من أي شيء ..

ونحن نعلم أن جامعي القمامة يقومون الآن بفعل شيء من ذلك .. بيد أن أبا سعيد المدائني قد سبقهم جميعاً ..

وقد حدث أن أحد سكانه قد سُرق منه شيء .. فقال لهم أبو سعيد أخرجوا الليلة تراباً .. فقد يندم من سرق فيرمي الشيء المسروق في التراب على أساس أنه مكان قد يكون قد وقع فيه لكثرة من يأتي إليه .. وبالفعل وجد الشيء المسروق ملقى على التراب ولكن على زبالة أبي سعيد .. فرآه قبل أن يراه من سُرق منه .. فطالبه أبو سعيد بحق تأجير زبالته له هذا اليوم وأخذ لذلك أجراً قبل أن يعطيه الشيء المسروق منه .. هذا هو أبو سعيد المدائني .. وهذه هي حكايته ..

حكايات في البخل .. من هنا وهناك

أما الأصمعي فقد كانت له فلسفة خاصة في التجارة .. أتى إليه قوم في أحد الأيام وكان معهم تاجر كان الأصمعي قد اشترى فاكهته ، وقد لحقت بهذا التاجر خسارة وعندما قدموا إليه سألوه أن يعدل في ثمن الفاكهة وينظر في الأمر من جديد .. إلا أن الأصمعي قال لهم : إنها إذن لقسمة ضيزى ـ أي : غير عادلة ـ أأشتري منه بشرط أن يكون الخسران لي والربح له .. هل يمكن لتاجر أن يقول ذلك .. التجارة شطارة .. ويستطرد الأصمعي قائلاً لهم : أما أنكم قد كلفتم خاطركم وجئتم معه فأنتم تؤمنون بحقه وتشفقون عليه من الخسارة وأنا لو كنت في مثل إيمانكم لغنيته عنكم وأعطيته حقه .. ولكن حيث أنتم هكذا فإنني أتفق معكم في تقسيم ما له من حق بيني وبينكم أجزاء متساوية ، هذا أفضل وأعدل من أن أتحمّل شيئاً وحدي لا ناقة لي فيه ولا جمل .. عندما سمعوا منه ذلك قاموا جميعاً وفروا من أمامه .. أما التاجر المسكين فأدرك أن حقه ـ إن كان له حق ـ قد ضاع أدراج الرياح وأصابه يأس وإحباط .. واليأس إحدى الراحتين كما يقولون ..

قصة القط الذي أكل اللحم نعرفها جميعاً .. فقد سأل زوج زوجته عن كيلو اللحم الذي كان قد اشتراه إلا أن الزوجة زعمت له أن قطتهم قد أكلت كيلو اللحم كله ، فقام الزوج ووزن القط فوجد أن وزنه كيلو بالتمام ، فقال لزوجته ساخراً : إذن فهذا هو اللحم فأين القط . هذه القصة المعروفة حدثت بصورة أخرى .. فقد اشترى شيخ بطيخة إلا أنه وجدها ناقصة فسأل المحيطين به من أهل بيته عن الجزء الناقص من البطيخة فقالوا أكلها القط .. فحاول أن يمتحن صدقهم ، فأخذ قطعة أخرى من البطيخة وألقاها للقط فلما لم يأكلها أدرك كذبهم وأراد أن يحصل منهم على ثمن البطيخة فقالوا له ربما أكل حـ

البطيخة أحد قطط الجيران ، ثم أنك رميت قطعة البطيخ لقطنا وهو شبعان وكان يجب أن تلقيها له في وقت آخر لنرى .. إلا أنه لم يسمع لهم كلمة وجعلهم يدفعون ثمن البطيخة .. يعلل شيخنا فعلته هذه .. فالأمر حقيقة يبدو غريباً .. كيف يدفع أهل بيته ثمن شيء جاء به للأكل .. فماذا يقول يقول الشيخ : إنه يمنع أهل بيته من الكذب والفساد ببعض الفساد وهو إغرامهم ثمن البطيخة ..

وقد كان أصحاب هذا الشيخ واسمه أبو عينيه يقولون له : أما والله أنت شيخ جاوز المائة عام ولك من العيال قليل ومع ذلك لا تزال تكد وتعمل ولا تستريح بحكم عمرك وما وصلت إليه صحتك .. لو كنت شاباً ما عتبناك ولكنك رجل مسن أحنى الدهر ظهرك ، ولو كنت فقيراً كثير العيال لقلنا كذلك إن الحق معك .. ثم أنك تلبس الثوب المرقع البالي وتمشي حافياً .. ألا يستحق هذا أن نسألك عن السبب .. يقول أبو عينيه رداً على أصحابه : إن قولكم هذا هو الخطأ بعينه فإنني لو علمت أن القيامة تقوم الساعة وكان معي فرع زرع لزرعته وقد قال أبو الدرداء وهو على فراش موته : زوجوني فإني أكره أن ألقى ربي عذباً ، ويقولون إن العجز فراش مريح لا يستلقى عليه إلا الفشل الذريع ، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : إياكم والراحة فإنها غفلة .. وقال رضي الله عنه : أحذركم عاقبة الفراغ فإنه أجمع لأبواب المكروه من الشغل .. إذن بعد كل هذا أأسمع نصائحكم وأستريح وأكف نفسي عن العمل ..

وكان أسد بن عبد الله والياً على خرسان عندما قدّم إليه طباخه شواءً من اللحم قد أنضجه نضجاً فقال له أسد : أتظن أن صنيعك يخفى عليّ ؟.. أنت لا تبالغ في إنضاجه لتطييبه ولكن لكي تستحلب كل دسمه ودهنه فتنتفع به .. فعلم أخو أسد بذلك فقال : رب جهل خير من علم ..

وكان رجل يحسب وقته بكل دقة ليكون بالتمام على مائدة الجوهري ، فإذا دخل والقوم يأكلون قال : إنه القدر الملعون .. من كان يعرف أني أحضر الساعة والمائدة عليها الطعام .. إنه مكتوب في اللوح المحفوظ أنني سآكله .. فلما أكثر من زياراته وقت الطعام .. قال له الجوهري : تعال وقت الغذاء والعشاء بعد ذلك فإن وجدت شيئاً .. العن وقتها القدر بل وكل الآباء والأمهات كذلك ..

وجاء غلام خالد بن صفوان بطبق فيه خوخ قد يكون أهداه لخالد أحدهم أو يكون الغلام جمعه من بستان ، وكان خالد يقول له : لولا أنني أعلم أنك قد أكلت منه لأطعمتك واحدة ..

وقد حكى أحدهم قال : كنت مع شيخ من الأهواز في سفينة وكنت بجانبه عندما جاء وقت الغداء ، فأخرج من سلة كانت معه دجاجة وفرخاً مطبوخاً ومبرداً وأقبل يأكل بنهم شديد دون أن يعرض عليَّ الأكل ولم يكن في السفينة سواه وأنا ، فرآني أنظر إليه مرة وإلى الدجاجة والطعام بين يديه مرة أخرى ، فتوهم أني أشتهيه وأعتب عليه عدم دعوتي إلى الطعام فقال لي بغيظ : لماذا تنظر لي بهذا الشكل ، آه ممن كان عنده أكل مثلي وعنده نظر مثلك .. ثم نظر إلي وأنا لا زالت أنظر إليه .. فقال : يا هناه .. أنا رجل حسن الأكل .. لا أتناول إلا طيب الطعام .. وأنا أخاف أن تكون عينيك مالحة وأنت كما يبدو لي فعينيك سريعة الحسد ومالحة فاصرف عني وجهك .. يقول من يحكي الحكاية .. فلم ألبث إلا أن وثبت عليه وأمسكت بلحيته بيدي اليسرى وبدجاجته بيدي اليمنى وأخذت أضربه بها في رأسه حتى تقطعت في يدي .. فقام الرجل ومسح وجهه ولحيته ثم قال لي : أخبرتك أن عينيك مالحة وإنك ستصيبني بعينك وهذا هو المكروه قد أصابنا من حسدك لنا ..

وكان عبد الملك بن قتيس بخيلاً جداً على الطعام ولكنه كان جواداً

بالدرهم .. وكان قد دعا واحداً من أشراف أهل البصرة .. ولما جلس الرجل ومر الوقت وشعر عبد الملك بأن الرجل قد تضايق من جلوسه دون أن يقدم له شيئاً فظهر عليه الغيظ والحنق فأقبل عليه عبد الملك وقال له : ألف درهم لك خذها ولا تحتسب علينا ضيفاً ، واحتمل أن يغرم ألف درهم ولم يحتمل أن يقدم رغيفاً لضيفه ..

وكان هشام بن عبد الملك قد دخل بستاناً له فيه فاكهة وأشجار وثمار ، وكان معه بعض من أصحابه فجعلوا يأكلون ويدعون له بالبركة والخير فاغتاظ هشام ونادى خادمه وأمره بأن يقلع كل هذا الشجر والثمر ويغرس مكانه الزيتون ..

وقد سأل حاذ خالد بن صفوان أن يعطيه حسنة فأعطاه درهماً .. فاستقله السائل واعتبره شيئاً تافهاً .. مجرد درهم .. فقال له خالد : يا أحمق إن الدرهم عشر العشرة والعشرة عشر المائة وإن المائة عشر الألف وإن الألف عشر العشرة آلاف ، أما ترى كيف ارتفع الدرهم إلى دية مسلم ..

وكان بلال بن أبي درة قد خاف من خدامه وهو والي البصرة فوصفوا له أن ينقع نفسه في السمن ، فكان إذا فرغ من الجلوس فيه أمر ببيعه فعلم الناس ذلك فحرم الناس في البصرة كلها شراء السمن طوال هذه السنة ..

وكان بلال يفطّر الناس في شهر رمضان فكانوا يجلسون حلقة في انتظار المؤذن ، فإذا أذّن المؤذن قام بلال للصلاة فيستحي الناس ويقومون خلفه للصلاة ، فإذا قاموا جاء الطباخون ورفعوا الطعام من على الموائد ..

وقد قالوا إن عمر بن يزيد الأسدي قد احتقن بحقنة دهن في شرجه حتى إذا ما لعبت عليه بطنه كره أن يتبرز في الخلاء فتضيع هذه الأدهان سدى ، فكان يجلس في طشت ويقول : صفوا هذا فإنه يصلح لإنارة السراج ..

وكان أحد الأمراء بخيلاً وكان يتنزه مع بعض من رجاله وكان بجانبه خمسة رجال من خاصته ، وحمل أكثر من خمسمائة رجل طعامه وعندما أراد أن يأكل ثقل عليه أن يأكلوا معه واشتد جوعه فأقبل إلى مكان قصي ـ بعيد ـ وأخذ يأكل الفجل فيضع الفجلة بأوراقها مرة واحدة في جوفه ودون غسيل ، وكان يقول لواحد منه قريب .. لو ذهب هؤلاء الناس لأكلنا في راحة وهناء ولكنه الخجل .. نعم لكنه البخل وليس الخجل ..

رسالة أبي العاص في عتاب البخلاء

كان أبو العاص بن عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفي كارهاً لنزعة البخل وكان من أحد همومه أن أحد أقربائه قد اتصف بالبخل فصار واحداً من المقترين البخلاء .. وقد أرسل أبو العاص برسالته إلى قريبه هذا يعاتب فيها مذهبه وطبعه .. فنراه يقول : إن جلوسك إلى الأصمعي وسهل بن هارون وإكثارك من ذكر المال وحفظه والقيام عليه ، كل هذه أدلة على سوء تدبيرك وإعجابك بالبخلاء حتى صرت منهم وأنت الذي كنت تعيب مذهبهم وسلوكهم ..

وقد رأينا فيك استحسانك قول الأصمعي : إن أكثر أهل النار من النساء والفقراء وإن أكثر أهل الجنة الأغنياء .. وهذا القول دليل على ما ذهبنا إليه من أنك صرت واحداً من البخلاء .. ثم رأيناك قد فضلت كلام ابن غزوان حين قال : تنعمنا بالطعام الطيب وبالثياب الفاخرة وبالشراب الرقيق وبالغناء المطرب وتنعمنا بعز الثروة وبصواب النظر في العاقبة وبكثرة المال والأمن من سوء الحال ومن ذل الرغبة في الرجال والعجز عن مصلحة العيال .. فتلك لذتكم وهذه لذتنا وهذا رأينا في التسلم من الذم وذاك رأيهم في التعرض للحمد .. وإنما ينتفع بالحمد السليم الفارغ البال ويسر باللذات الصحيح الصادق الحس .. فأما الفقير فما أغناه على الحمد وأفقره إلى ما به يجد طعم الحمد والطعام الذي أثرتموه يعود رجيعاً أي : براز ، والشراب يصير بولاً والبناء يعود نقضاً وهدماً والغناء ريح هابة ومسقط للمروءة وسخافة تفسد .. فلذتكم فيما حوى لكم الفقر ونقص المروءة ولذتنا فيما حوى لنا الغنى وبنى المروءة فنحن في بناء وأنتم في هدم ونحن في إبرام وأنتم في نقض ونحن في التماس العز الدائم مع فوت بعض اللذة وأنتم في التعرض للذل الدائم مع فوت كل مروءة .. كان

هـذا هو كلام ابن غزوان وهو آيـة في البخـل وإمـاماً للبخـلاء .. ونراه هنـا يدافع عن مذهبهم ويذم مذهب الأسخياء والمسرفين نعود إلى كلام أبي العـاص ونراه يقول لقريبـه : إن إعجـابـك بكلام ابن غزوان بعـد ذمـك لـه وتحقيرك لمذهبه دليل على دخولـك في داء البخل والحمـد لله الـذي لم يميتني قبل أن أرى لـك كل هـذا المـال وأنت أجير لـه .. فقـد تعجلت الفقر قبـل أوانـه وصرت كالمجلود في غير لذة .. وهل تزيد حـال من أنفق جميع مـالـه ورأى المكروه في عياله وظهر فقره ، وشمت به عدوه عن حال من أدى بخله إلى انصراف النـاس عنه وعلى بغض عياله له وعلى خشونة الملبس وخشونة المأكل وهـذا كلـه بـسبب داء البخل إلا أن الذي ينفق ماله قد ربح الحمد وتمتع بالنعمة ولم يعطل قدرته على الإنفاق أما البخيـل فإنه يعذب نفسه ويتعرض للذم والإهـانـة .. ولم ترى أن أحداً من أهلنا وأقربائنا كانت به هذه الخصلة أو كان بخيلاً مقتراً ..

إن الله جواداً لا يبخل وصـدوقـاً لا يكـذب ووفيـاً لا يغـدر وحليماً لا يعجـل وعدلاً لا يظلم ، وقد أمرنا بالجود ونهانا عن البخل وأمرنا بالصـدق ونهـانـا عن الكذب وأمرنا بالحلم ونهانا عن **العجلـة والسـرعة** ، وأمرنـا بـالعـدل ونهـانـا عن الظلم وأمرنا بالوفاء ونهـانـا عن الغـدر .. فلم يـأمرنـا إلا بمـا اختـار لنفـسـه ولم يزجرنـا إلا عمـا لم يرضـه لنفـسـه وقـد قـالوا : إن الله أجود الأجـودين وأمجـد الأمجـدين كما قالوا : أرحم الراحمين وأحسن الخـالقين .. وذكر نفـسـه عـز وجـل وتقدست أسماؤه فقال : **ذو الفضل العظيم .. وذو الطول لا إله إلا هو** . وقـال : **ذو الجلال والإكرام** ..

وقـد كان الرسـول عليـه الصـلاة والسـلام لا يضـع الـدرهم على الـدرهم ولا اللبنة على اللبنـة ، وكان يملـك الجزيرة العربيـة ويجمع الصـدقـات وتُجبى لـه الأموال من العراق حتى عمـان إلى اليمن ، ثم توفي عليـه الصلاة والسـلام وعليـه دين ودرعه مرهونة ولم يسـأل حاجة قط ، وكان إذا سئل عليـه الصلاة والسلام

أعطى وإذا وعد أنجز وقد ذكرته الشعراء بالجود وذكرته الخطباء بالسماح ..

وكانت قبيلة هاشم تفخر دون سائر قريش فكانوا يقولون : نحن أطعم للطعام وأشجع الشجعان وذكرها العلماء فقالوا : أجواد أنجاد وأجمع الأمم كلها بخيلها وسخيها وممزوجها على ذم البخل وحمد الجود ، كما أجمعوا على ذم الكذب وحمد الصدق وقالوا أفضل الجود .. الجود بالموجود وقد عرفنا عن حاتم الطائي كرمه فما سمعنا غريباً سفه حلم حاتم لجوده بجميع ماله بل جعلوا ذلك منه مكرمة تخص العرب فقط عن ما دونهم من عجم وسائر الشعوب .. وإنما أورد إليك كل هذا ـ الكلام ما زال لأبي العاص ـ لأريك ما كانت عليه الأنبياء وما اتفق عليه الناس من مدح للجود والكرم وذم وتحقير للبخل والشح .. ونحن لم نر الأمة أبغضت جواداً قط ولا حقرته بل أحبته وعظمته ، بل أحبت أهله وعظمتهم تكريماً له .. ولا وجدناهم أبغضوا جواداً لمجاوزته حد الجود إلى الإسراف ولا حقرته .. بل وجدناهم يتعلمون مناقبه ويتدارسون مما سنّه وحتى أضافوا إليه من نوادر الجميل ما لم يفعله ..

وقد زعم الناس أن الثناء في الدنيا يضاعف لصاحبه كما تضاعف الحسنات في الآخرة .. نعم وقد أضاف الناس للكريم الجواد كل مديح شارد وكل معروف مجهول الصاحب ، ثم وجدنا هؤلاء يحملون للبخيل عكس ذلك تماماً فهم يبغضونه مرة ويحقرونه مرة ويحتقرون أهله لاحتقارهم إياه وهم يضيفون للبخيل من نوادر اللؤم ما لم يبلغه .. ومن غرائب البخل ما لم يفعله وحتى ضاعفوا إليه من سوء الثناء بقدر ما ضاعفوا للجواد من حسن الثناء ..

والبخيل عند الناس ليس هو الذي يبخل على نفسه فقط فقد يستحق عندهم اسم البخيل ويستوجب الذم من لا يدع لنفسه هوى إلا ركبه ولا حاجة إلا قضاها ولا شهوة إلا ركبها وبلغ فيها غايته ، وإنما يقع عليه اسم البخيل إذا كان زاهداً في كل ما أوجب الشكر واستحق الذكر وادخر الأجر ،

وقد يتخذ البخيل من الجواري والخدم ومن الدُواب والحشم ومن الطعام الجيد والملبس الفاخر ما يزيد على نفقة السخي الثري ، إلا أن ذلك لا يفيده ، فيذهب ماله وهو مذموم ويتغير حاله وهو ملوم .. وكأنك لم تر بخيلاً مخدوعاً وبخيلاً مضعوفاً أنفق ماله في طمع كاذب وعلى أمل خائب وفي طلب السلطة والدخول في نسب القبائل وهنا تكون فتنته بما يؤمل من الأمر فوق فتنته بما قد حواه من الذهب والفضة ..

وقد رأينا بعض البخلاء ينفق على مائدته وفاكهته ألف درهم في كل يوم وكأن عنده كل يوم عرس ، ومع ذلك نراه يتحمل أن يطعن المرء في الإسلام أمامه ولا يطعن في رغيفه الثاني ليأكله ، وهو أهون عليه أن يهدم أحدهم الدين ويحقره أمامه ولا يشق رغيفاً من أرغفته ، لذلك رأينا الآفات صارت إلى أموال البخلاء أسرع وضياع أموالهم أكثر لأنهم أقل توكلاً وأسوأ بالله ظناً ، والجواد إما أن يكون متوكلاً وإما أن يكون أحسن بالله ظناً ، واعتلال البخيل بالأحداث وسوء ظنه بتقلب الزمان إنما هو كناية عن سوء الظن بخالق الأحداث وبالذي يحدث الزمان وأهل الزمان وهل تجري الأحداث إلا على تقدير المحدث لها .. وهل تختلف الأزمنة إلا على تصريف من دبرها أو لسنا وإن جهلنا أسبابها فقد اتفقنا بأنها تجري إلى غايتها ..

وقد علمنا أن المال فاتن والنفس راغبة والأموال ممنوعة .. وهي على ما منعت حريصة فالنفوس مغرمة بالمكاثرة ، والمرء الذي لا فكرة له ولا روية موكل بتعظيم ذي الثروة وإن لم تكن منه منالة ..

لقد قال رسول الله ﷺ : « لو أن لابن آدم واديين من مال لابتغى ثالثاً ولا يُشْبِع ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب » .. وقال الرسول الكريم : « السخاء من الحياء والحياء من الإيمان » كما قال صلوات الله عليه : « إن الله جواد يحب الجود » وقال : « أنفق يا بلال ولا تخش من العرش

إقلالاً » .. ومن قيل لقيس بن عاصم : إنما لك من مالك ما أكلت فأفنيت وما لبست فأبليت أو أعطيت فأقضيت وما سوى ذلك فللوارث ..

وقد جاء في الأثر أن أهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة وفي المثل .. اصنع الخير ولو إلى كلب .. وقال الرسول عليه الصلاة والسلام : « لا يمنعك من معروف صغره » .. وقال صلوات الله وسلامه عليه : « اتقوا النار ولو بشق تمرة » .. ومن أقواله عليه الصلاة والسلام : « ينادي كل يوم مناديان من السماء يقول أحدهما : اللهم عجل لمنفق خلفاً أي : أعطه بمثل ما أنفق بينما يقول الآخر : اللهم عجل لممسك تلفاً » .. وقد قال الله عز وجل : ﴿ **وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً** ﴾ وقال سبحانه وتعالى : ﴿ **لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ** ﴾ وقال عز وجل : ﴿ **وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ .. كانت هذه هي رسالة أبي العاص لقريبه الثقفي يحثه فيها على ترك البخل والانقطاع عن جماعة البخلاء وهكذا جمع في رسالته كل مناقب الكرم والجود وعدد من مآثر السخاء لعل الثقفي يعود إلى سابق عهده ويترك مذهب البخل والشح لأهله .. إلا أن الرسالة قرأها واحد من أئمة البخل وقادته وهو « ابن التوأم » فلما قرأها أراد أن لا يرد على أبي العاص حتى لا يكثر هذا من الجدل والنقاش دون طائل ، فكتب رسالته وأرسلها إلى الثقفي نفسه يحثه فيها على المضي قدماً في سبيل الحرص على المال وحفظه وعدم التفريط فيه .. وهو يعدد في رسالته ما للبخل من فضل لا يعلمه إلا البخلاء .. فماذا قال ..؟.. تعالوا نقرأ رسالته ..

أما بعد .. فقد بلغني ما ذكره أبو العاص لنا في رسالته وما نوّه به وشنّع بنا وإننا بردنا عليه لا نصير إلى التهاتر والسخف وليس يحترس من أسباب المهاترة إلا من عرف أسباب البلوى ، ومن وقاه الله سوء التكفي وسخفه

وعصمه من سوء التصميم ونكده فقد اعتدلت طباعه وتساوت خواطره ، ومن قامت أخلاطه على الاعتدال وتكافأت خواطره في الوزن ، لم يعرف من الأعمال (إلا) الاقتصاد ولم يجد أفعاله أبداً إلا بين التقصير والإفراط لأن الموزون لا يولد إلا موزوناً كما أن المختلف لا يولد إلا مختلفاً ..

وقد قالوا احفظ سرك فإن سرك من دمك وسواء ذهاب نفسك وذهاب ما به يكون قوام نفسك وقد قال المنجاب العنبري .. ليس بكبير ما أصلحه المال وفقد الشيء الذي به تصلح الأمور أعظم من الأمور .. وقد قضوا بأن حفظ المال أشد من جمعه .. والدرهم هو القطب الذي تدور عليه رحى الدنيا .. واعلم أن التخلص من نزوات الدرهم وتقلبه ـ من سكر الغنى ـ وتفلته شديد .. فلو كان إذ تفلت كان حارسه صحيح العقل سليم الجوارح مرده ـ أي : الدرهم ـ في عقاله ولشده بوثاق ، ولكن وجدنا ضعفه عن ضبطه بقدر قلقه في يده .. ولا تغتر بقولهم .. مال صامت فإنه أنطق من كل خطيب وأنم من كل نمام .. ولا تكترث بقولهم « هذين الحجرين » ـ يقصد الدرهم والدينار ـ فتتوهم جمودهما وسكونها وطول إقامتهما عن عملها وهما ساكنان ونقضهما للطبائع وهما ثابتان أكثر من صنيع السم الناقع ..

واحذر أن تخرج من مالك درهماً حتى ترى مكانه خيراً منه .. ولا تنظر إلى كثرته فإن رمل الصحراء لو أخذ منه ولم يُرد عليه لذهب عن آخره .. إن القوم قد أكثروا في ذكر الجود وتفضيله وفي ذكر الكرم وتشريفه وسموا السرف جوداً وجعلوه كرماً ، وكيف يكون كذلك وهو نتاج ما بين الضعف وقلة الحيلة وكيف لا يكون سرفاً إلا بعد مجاوزة الحق وليس وراء الحق إلى الباطل كرم .. وإذا كان الباطل كرماً ما كان الحق لؤماً والسرف ـ حفظك الله ـ معصية الله كرماً ، كانت طاعته لؤماً ولئن جمعهم اسم واحد وشملهم حكم واحد ، ومضادة الحق للباطل كمضادة الصدق للكذب والوفاء للغدر والظلم

للعدل والعلم للجهل ليجمعن هذه الخصال اسم واحد وليشملنها حكم واحد .. وقد وجدنا الله عاب السرف وعاب المعصية .. وإنما المعصية ما جاوز الحق وما وجدنا اسم المعصية ولا اسم السرف يقع أبداً إلا مذموماً .. وإنما يسر باسم السرف جاهلٍ لا علم له أو رجل إنما يسر به لأن أحداً لا يسميه مسرفاً حتى يكون عنده قد جاوز حد الجود وحكم له بالحق ثم أردفه بالباطل ، فإن سر من غير هذا الوجه فقد شارك المادح في الخطأ وشاكله في وضع الشيء في غير موضعه ..

وقد أكثرنا في ذكر الكرم .. وما الكرم إلا كبعض الخصال المحمودة التي لم يعدمها بعض الذم وليس شيء يخلو من بعض النقص والوهن وقد زعم الأولون أن الكرم يسبب الغباء وأن الغباء يسبب البله وأنه ليس وراء البله إلا العته والجنون وقد حكوا عن كسرى أنه قال : احذروا صولة الكريم إذا جاع واللئيم إذا شبع .. وسواء جاع فظلم وعسف أم جاع وكذب وضرع وأسف وسواء جاع فظلم غيره أم جاع فظلم نفسه ..

والظلم لؤم .. وإن كان الظلم ليس بلؤم فالإنصاف ليس بكرم .. وإن كان الجود على من لا يستحق الجود كرماً فالجود لمن وجب له ذلك ليس بكرم ، فالجود إن كان لله كان شكراً له والشكر كرم .. ولن يكون الجود ـ إذا كان معصية ـ كرماً .. فكيف يتكرم من يتوصل بأياديك إلى معصيتك وبنعمتك إلى سخطك ؟.. فليس الكرم إلا الطاعة وليس اللؤم إلا المعصية وليس بجود ما جاوز الحق وليس بكرم ما خالف الشكر ، ولئن كان مجاوز الحق كريماً ليكونن المقصد دونه كريماً ..

فإن قضيتم بقول العامة ، فالعامة ليست قدوة ، وكيف يكون قدوة من لا ينظر ولا يفكر ولا يمثل ؟.. وإن قضيتم بأقاويل الشعراء وما كان عليه أهل الجاهلية الجهلاء فما قبحوه مما لا يشك في حسنه أكثر من أن نقف عليه أو

نتشاغل باستقصائه ..

على أنه ليس بجود إلا ما أوجب الشكر كما أنه ليس ببخل إلا ما أوجب اللؤم .. ولن تكون العطية نعمة على المعطي حتى نراود بها نفس ذلك المعطي ، ولن يجب عليه الشكر إلا مع شريطة القصد ..

وكل من كان جوده إليه ولولا رجوعه إليه لما جاد عليك ولو تهيأ له ذلك المعنى في سواك لما قصد إليك ، فإنما جعلك معبراً لدرك حاجة ومركباً لبلوغ محبته ولولا بعض القول لوجب لك عليه حق يجب به الشكر .. فليس يجب لمن كان كذلك شكر وإن انتفعت بذلك منه إذا كان لنفسه عمل .. لأنه لو تهيأ له ذلك النفع في غيرك لما تخطاه إليك .. وإنما يوصف بالجود في الحقيقة ويشكر على النفع في حجة العقل الذي إن جاء عليك فلك جاء ونفعك أراد من غير أن يرجع إليه جوده بشيء من المنافع على جهة من الجهات وهو الله وحده لا شريك له ..

فإن شكرنا للناس على بعض ما قد جرى لنا على أيديهم فإنما هو لأمرين أحدهما : التعبد وقد نعبد الله بتعظيم الوالدين وإن كانا شيطانين وتعظيم من هو أكثر عمراً منا وإن كنا أفضل منه .. والآخر لأن النفس ما لم تحصل الأمور وتميز المعاني فالسابقة إليها حب من جرى لها على يد خير وإن كان لم يردها ولم يقصد إليها ..

ووجدنا عطية الرجل لصاحبه لا تخلو أن تكون لله أو لغير الله .. فإن كانت لله فثوابه على الله .. وكيف يجب علي في حجه العقل وشكره وهو لو صادف ابن سبيل غيري لما حملني ولا أعطاني .. وأما أن يكون إعطاؤه إياي للذكر .. فإذا كان الأمر كذلك فإنما جعلني سلماً إلى تجارته وسبباً إلى بغيته .. أو يكون إعطاؤه إياي من طريق الرحمة والرقة ولما يجد في فؤاده الغصة والألم فإن كان كذلك أعطى فإنما داوى نفسه .. وإن كان إعطائي على طلب

المجازات وحب المكافأة فأمر هذا معروف .. وإن كان إعطائي من خوف لساني أو يدي أو اجترار معونتي ونصرتي فسبيله سبيل جميع ما وصفنا وفصلنا ..

فلاسم الجود موضعان أحدهما حقيقة والآخر مجاز .. فالحقيقة ما كان من الله والمجاز المشتق له من هذا الاسم .. وما كان لله كان ممدوحاً وكان لله طاعة فإذا لم تكن العطية على الله ولا لله فليس يجوز هذا فيما سموه جوداً فما ظنك بما سموه سرفاً وإسرافاً ؟ ..

إن غاية الناس التكسب دون مجهود .. وغاية الشعراء والخطباء أكثر فإنما هم قد تعلموا المنطق والشعر من أجل الكسب .. وهم يودون لو أن أرباب الأموال في غفلة من أمرهم حتى لا يكون للأموال حارس ولا دونها مانع .. فاحذرهم وكلهم وإن اختلفت وجوه مسألتهم واختلفت أقدار مطالبهم ، إلا أن واحداً يطلب العلق وآخر يطلب الخرق وهذا يطلب الدراهم وهذا يطلب الدنانير وغيره يطلب الألوف ، فجهة هذا هي جهة هذا وطمعة هذا هي طمعة هذا .. وإنما يختلفون في أقدار ما يطلبون على قدر الحذق والسبب .. فاحذرهم واحذر ما نصبو لك من الشرك واحرس نعمتك وما دسوا لها من الدواهي .. واعمل على أن سحرهم يسترق الذهن ويختطف البصر .. قال رسول الله ﷺ : « إن للبيان لسحراً » وسمع عمر بن عبد العزيز رجلاً يتكلم في حاجة فقال : هذا والله السحر الحلال .. واحذر مديحهم فإن محتمل المديح في وجهه كمادح نفسه ..

إن مالك لا يسع مريده ولا يبلغ رضا طالبيه ولو أرضيتهم بإسخاط مثلهم لكان ذلك خسراناً مبيناً .. فكيف ومن يسخط أضعاف من يرضي وهجاء الساخط أضر من فقد مديح الراضي .. وأنت لو بذلت كل مالك ما أرضيت أحداً وكيف ترضيهم ورضى الجميع شيء لا ينال وقد قال : وكيف

يتفق رضا المختلفين ؟.. وقالوا : منع الجميع أرضى للجميع .. إنني أحذرك فإنك لست كمن لم يزل يقاسي تعذر الأمور ويتجرع مرارة العيش ويتحمل ثقل الكد ويشرب بكأس الذل حتى كان يمرّن على ذلك جلده ويسكن عليه قلبه .. وفقر مثلك مضاعف الألم وجزع من لم يعرف الألم أشد ومن لم يزل فقيراً فهو لا يعرف الشامتين ولا يدخله المكروه من سرور الحاسدين ، ولا يلام على فقره ولا يصير موعظة لغيره وحديثاً يبقى ذكره ويلعنه بعد الممات ولده ..

هل رأيت أحداً قط أنفق ماله على قوم كان غناهم سبب فقره إنه سلم عليهم حتى افتقر فردوا عليه .. فضلاً على غير ذلك .. أو لست قد رأيتهم بين محتجب عنه وبين من يقول فهلا أنزل حاجته بفلان الذي كان يفضله ويقدمه ويؤثره ويخصه .. ثم لعل بعضهم أن يتجنى عليه ذنوباً ليجعلها عذراً في منعه وسبباً في حرمانه ..

فأنا القائم عليك بالموعظة والزجر والأمر والنهي وأنت سالم العقل والعرض وافر المال حسن الحال .. فاتق أن أقدم غداً على رأسك بالتقريع والتعبير والتوبيخ والتأنيب وأنت عليل القلب مختل العرض عديم من المال سيء الحال .. فانظر أين موقع فوت الثناء من موقع ما عددنا عليك من البلاء .. على أن الثناء طعم ولعلك ألا تطعمه ، والحمد أرزاق ولعلك ألا تحرمه ..

وعيب الغنى أن يورث البلادة ، وفضيلة الفقر أن يبعث الفكر وإن أنت ضحيت الغنى بإهمال النفس أسكرك الغنى .. وأنا أحب أن تجمع مع تمام نفس الثري ومع عز الغني وسرور القدرة فطنة المخف وخواطر المقل ..

وقد قال عثمان بن أبي العاص : ساعة لدنياك وساعة لآخرتك ، وقال رسول الله ﷺ : « أنهاكم عن قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال » .. وقال صلوات الله وسلامه عليه : « خير الصدقة ما أبقى غني واليد" لبا خير من

اليد السفلى وابدأ بمن تعول » .. كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « الثلث كثير إنك إن تدع ولدك أغنياء خير من أن يتكففوا ـ أي : يسألوا ـ الناس » .. قال الرسول ﷺ : « كفي بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت » .. وقال عز وجل : ﴿ **لا تُبَذِّر تَبْذيراً إنَّ المُبَذِّرينَ كَانُوا إخْوَانَ الشَّيَاطين** ﴾ .. وقال سبحانه : ﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ .. قُلِ العَفْو ..** ﴾ .. يقول ابن التوأم : ـ والزعم عليه ـ إن كعب بن مالك أراد أن يتصدق بماله فقال له النبي عليه الصلاة والسلام : « أمسك عليك مالك » .. فالنبي عليه الصلاة والسلام يمنعه من إخراج ماله في الصدقة وأنتم تأمرونه في السرف والتبذير .. وقال عز وجل في كتابه الكريم : ﴿ **الَّذِينَ إذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً** ﴾ ، وقال رسول الله ﷺ : « إن المنبت ـ أي : المتسرع العجول ـ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى » .. وقال عز وجل : ﴿ **وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إلَى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ البَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً** ﴾ ..

ومن قالوا إن خير مالك ما نفعك وخير الأمور أواسطها ، كما قالوا عليك بالسداد والاقتصاد .. كما قالوا لا تكن حلواً فتُبتلع ولا مراً فتُلفظ .. وقالوا : القليل الدائم أكثر من الكثير المنقطع ..

وقالوا في عدل المصلح ولائمة المقتصد : الشحيح أعذر من الظالم ..وقالوا : ليس من العدل سرعة العذل وقالوا : لعل له عذراً وأنت تلوم ، وقد قال الأحنف : رب ملوم لا ذنب له ، وقال الرسول عليه الصلاة والسلام : « لا تصلح المسألة ـ أي : طلب الحاجة ـ إلا في ثلاث : فقر مدقع وغرم مفظع ودم موجع » .. ومن أخرج ماله من يده افتقر .. وقد قالوا لا تكن كمن تغلبه نفسه على ما يظن ولا يغلبها على ما يستيقن فانظر كيف تخرج الدرهم ولِمَ تخرجه ، وإن تفتقر بمصيبة نازلة لا يد لك فيها خير لك من أن تفتقر بجناية مكتسبة .. ومن كان سبباً لذهاب وفرة ماله لم تعدمه الحسرة من نفسه

وقلة الرحمة وكثرة الشماتة والهوان من غيره .. فمن سلط الشهوات على ماله وحكّم الهوى في ذات يده فبقي حسيراً فلا يلومن إلا نفسه ، وطوبى لك يوم تقدر على قديم تنتفع به ..

أقول لك دع ما يريبك إلى ما لا يريبك .. أخوك من صدقك ومن أتاك من جهة عقلك ولم يأتك من جهة شهوتك ، وأخوك من احتمل ثقل نصيحتك في حظك ولم تأمن لائمته إياك في غدك .. ولا تزال بخير ما كان لك واعظ من نفسك وعين من عقلك على طباعك أو ما كان لك أخ نصيح .. والزوجة الصالحة عون صدق والسعيد من وعظ بغيره ، فإن أنت لم ترزق من هذه الخصال خصلة واحدة فلابد لك من نكبة موجعة يتقى أثرها ويلوح لك ذكرها ولذلك قالوا : خير مالك ما نفعك ، وقالوا : لم يذهب من مالك ما وعظك ..

والمال محروص عليه ومطلوب في كل مكان ؛ هو مطلوب في قعر البحار وفي رؤوس الجبال وفي كل سهل وقفر وبقعة من الأرض ، والناس ينصبون فخاخهم وشراكهم من أجل الحصول عليه .. وأنت إذا لم تستعمل الحذر وتأخذ بنصيبك من المداراة وتتعلم الحزم وتجالس أصحاب الاقتصاد وتمثل لنفسك الغير حتى تتوهم نفسك فقيراً وضائعاً ، وحتى تتهم شمالك على يمينك وسمعك على بصرك ولا يكون أحداً اتهم عند نفسك من ثقتك .. اختطفت اختطافاً وضاع مالك وبقيت لك الحسرة والذلة والفقر المدقع ..

فكر في أمرك ـ مازال الكلام لابن التوأم ينصح الثقفي ـ وتقدم في حفظ مالك فإن من حفظ ماله فقد حفظ الأكرمين .. والأكرمان : الدين والعرض .. وقد قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « الناس كلهم سواء كأسنان المشط كالمرء كثير بأخيه » ولا خير لك في صحبة من لا يرى لك مثل ما يرى لنفسه .. فتعرف شأن أصحابك ومعنى جلسائك ؛ فإن كانوا في

هذه الصفة فاستعمل الحزم وإن كانوا في خلاف ذلك عملت على حسب ذلك .. إني لست آمرك إلا بما أمر به القرآن وأوصانا به رسول الله .. وقد قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « اعقلها وتوكل » وقد قيل إنه من طمع في السلامة من غير تسلم فقد وضع الطمع في موضع الأماني .. وقد فر عمر رضي الله عنه من الطاعون فقال له أبو عبيدة : أتفر من قدر الله ؟.. قال عمر : نعم إلى قدر الله .. وقد قيل لعمر : هل ينفع الحذر من القدر ؟.. قال رضي الله عنه . لو كان الحذر لا ينفع لكان الأمر لغواً ..

وقد قال زهير القابي : إن كان التوكل أن أكون متى أخرجت مالي أيقنت بالخلف أي : تأكدت من رجوعه إلى كيسه ، ومتى ما لم أحفظه أيقنت بأنه محفوظ فإني أشهدكم أني لم أتوكل قط ، إنما التوكل أن تعلم أنك متى أخذت بأدب الله أنك تتقلب في الخير فتُجزى بذلك إما عاجلاً وإما آجلاً .. وقد حجر عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه على ابن أخيه عبد الله بن جعفر في إخراج المال في غير حقه وإعطائه في هواه ..

فإن كان مالك قليلاً فإنما هو قوام عيالك وإن كان كثيراً فاجعل ما يتبقى لعدة نوائبك وقد قالوا : لا يأمن الأيام إلا المضلل ولا يغتر بالسلامة إلا المغفل ..

كانت هذه رسالة ابن التوأم إلى الثقفي رداً على رسالة أبي العاص .. وقد كان رده طويلاً ينطوي على كثير من الحِكَمْ والنصائح ، وهي ذات فائدة ولا شك وإن كانت في النهاية تخدم الطبع البخيل المتغلغل في نفوس هذه الجماعة فالمسألة في نظرهم تتلخص في حفظ المال خوفاً من غوائل الأحداث وتقلب الزمان ، بينما الكريم في نظرهم لا يهتم بهذه الأمور فكأنه الواثق من الدنيا الذي آمن شرها .. وهكذا نراهم يغلون في التعلق بالمال وحفظه وجمعه ومع الوقت يصبحون عبيداً له يسخرهم كيفما شاء ويهدي سلوكهم في أي طريق

يريد .. وإننا لا نجد خيراً من هذه الآية الكريمة التي وردت في القرآن الكريم تدعونا إلى عدم الإسراف في جهل ، وإلى عدم البخل والتقتير في ضيق فيقول عز وجل في كتابه الكريم : ﴿ **الَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً** ﴾ .. وقال سبحانه وتعالى أيضاً : ﴿ **وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً** ﴾ ..

نعود مرة أخرى إلى نوادر البخلاء .. وقد جمع الجاحظ بعضها وجعلها ختاماً لكتابه البخلاء .. تتحدث الطرفة الأولى عن رجل مقل كان قليل المال بينما له أخ مكثر ، له مال كثير ولكنه كان مفرط البخل .. قال له يوماً أخوه : أنا فقير وعندي عيال كثيرون ، وأنت غني وليس عندك ما عندي من العيال ألا تعينني على الزمان وتواسيني ببعض مالك وتعطني شيئاً .. فإنني والله ما رأيت قط ولا سمعت أبخل منك .. قال له أخوه الغني : ويحك ، ليس الأمر كما تظن ولا المال كما تحسب ولا أنا كما تقول في البخل ولا في اليسر ، والله لو ملكت ألف ألف درهم لوهبت لك خمسمائة ألف درهم .. يا قوم هل يعقل أن رجلاً يهب لآخر خمسمائة ألف درهم مرة واحدة يقال له بخيل ..

وقال إبراهيم بن عبد العزيز إنه قد تغدى ذات مرة مع راشد الأعور ، وكان إبراهيم يمسك بالسمكة فيفصل رأسها ويلقيه ثم يشقها من بطنها فينزع الشوكة في منتصفها والشوك الآخر بها ثم يلقي ما في بطنها ، ثم يجمع ما تبقى بعد ذلك من اللحم ويضعه في لقمة واحدة ويأكلها .. أما راشد الأعور فكان يأخذ السمكة فيقطعها قطعتين كما هي فيجعل كل قطعة في لقمة لا يلقي من السمكة رأساً ولا شوكاً .. وكان إن صبر على أكل إبراهيم عدة لقيمات وهو ينظر إليه بغيظ حتى فاض به الكيل ، فقال له : يا بني .. لماذا لا تأكل من الطعام بخيره وشره ..

وكان راشد الأعور يقول إنه لا يهنأ بالأكل إلا مع الزنوج السود ، **ومع أهل**

أصبهان ، فلما سئل عن السبب قال : لأن الزنجي لا يتخير الطعام وأنا ـ أي : راشد ـ أتخيره .. أما الأصبهاني فإنه يأخذ من الطعام ملء قبضة يده ولا يأكل من سواها ولا ينظر إلى الطعام حتى يفرغ مما في قبضة يده .. وكان يقول إن هذا هو العدل وإن التخير قرفة وظلم .. ومما لا شك فيه أن ما تبقى من البلح لا ينفع للعيال إذا ما كان الضيف يتخير من الطعام أحسنه .. وكان يقول : ليس من الأدب أن تجول يدك في الطبق وإنما هي تأخذ وما يكون يؤكل ..

وكان أحدهم يأمر ضيوفه أن يتوقف الجميع عن الطعام إذا ما كان أحدهم يشرب الماء حتى لا يفوته من الطعام شيء .. ولما لم يطع ضيوفه ما قاله لهم كان يجيء بالأرز ثم يخط خطاً فيه بإصبعه ، ويقول هذا نصيبي لا يقترب منه أحد إذا كنت أشرب الماء ..

وكان واحد من البخلاء إذا دعى ضيوفه إلى الطعام قال لهم وهم جلوس على المائدة وقبل أن يمدوا أيديهم إلى الطعام يقول لهم : إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءاً ولا شكوراً .. وكان المكي يقول لضيوفه ذلك البخيل ويدعى البياني .. يقول لهم : وَيُحَكُمْ كيف تحسنون أكل طعامه وهو يقول لكم هذه الآية ..

وكان جماعة من الناس ماضون في طريقهم وبينهم شيخ كبير من الأولياء ورجل وابنه ، وبينما هم يمشون طلبوا الراحة فجلسوا بجوار بستان فجاء حارس البستان ومعه طبق فيه تمر وسكر فوضعه بين أيديهم ، فأكل الشيخ الكبير وكان الرجل وابنه لا يأكلون .. فجاء الحارس وقال للرجل : لِمَ لا تأكل أنت وابنك .. فقال الرجل : والله إني أشتهي هذا التمر ولكنني لا أظن أن صاحب الأرض قد أباح لك إطعام الناس الغرباء ، فقال الشيخ الكبير وهو يسمع هذا الكلام : ولكنني لا أهتم بمثل هذا الكلام كله ..

وكان إسماعيل بن غزوان قد دخل إلى المسجد ليصلي فوجد الناس وقفوا صفاً ولم يستطع أن يقف وحده فجذب ثوب شيخ كبير في الصف ليتأخر الشيخ قليلاً فيصلي معه ، فلما تأخر الشيخ تقدم إسماعيل إلى مكان الشيخ من الصف وترك الشيخ قائماً ينظر في قفاه ويدعو الله عليه ..

وإنني لا أدري ما لهذه القصة من علاقة بالبخل والبخلاء وأكبر ظني أن الجاحظ قد أوردها لطرافتها وظرفها لا أكثر من ذلك ..

ومن الطرائف الأخرى التي يوردها الجاحظ ولا تتعلق بموضوع الكتاب عن البخل والبخلاء ما يرويه من أن مشاجرة قد وقعت بين قوم كان بينهم مغني يطربهم بصوته ، وقد قام المغني يحجز بينهم أو يفض هذه المشاجرة ، وكان هذا المغني شيخاً كبيراً .. فأمسك به رجل من المتخانقين بحلقه وعصره بين يديه .. فما كان من المغني إلا أن صرخ : معيشتي .. معيشتي .. أي : صوته الذي يأكل به فتبسم الرجل وتركه ..

يعود الجاحظ إلى طرفه ونوادره عن البخلاء من المطربين فيقول : كان أحدهم ويدعى أبو كريمة قد أهدى له آنية أو قدراً كبيراً فارغاً ، ولم يكن يريد أن يدفع أجراً لشيال يحملها له كما عزت عليه نفسه أن يحملها بنفسه وأخذه الغرور لذلك .. فأخذ يركلها بقدميه فتدحرج أمامه ثم ينظر يميناً وشمالاً حتى يتأكد أن أحداً لا يلاحظه ثم يعود ويدفعها وكان يدفعها في بعض الأحيان من اليمين والشمال حتى تدور وتمضي في الطريق أمامه وظل هكذا حتى وصل بها إلى منزله ..

وكان الأصمعي يوماً في قوم فأخذ يسألهم واحداً بعد آخر عما يأكلون فقال للأول : ما هو أكلك ؟.. فقال : اللحم .. فسأله الأصمعي : كل يوم لحم ؟.. فقال الرجل : نعم .. فقال الأصمعي : بئس الأكل هذا .. لم يكن هذا عيش عمر بن الخطاب رضي الله عنه .. لقد كان رضي الله عنه يقول : مدمن اللحم

كدمن الخر .. ثم سأل رجلاً آخر عن طعامه فقال الرجل : طعامي كثير وهو متنوع .. فقال له الأصمعي : هل فيه سمن ؟.. قال الرجل : نعم . فقال الأصمعي : تجمع بين السمن واللحم السمين على مائدة واحدة ؟ قال الرجل : نعم . فقال الأصمعي : ليس هذا أكل عمر بن الخطاب .. كان رضي الله عنه إذا رأى القدور المختلفة تحتوي الأطعمة كان يجمعها كلها في قدر واحد ويقول : إن العرب لو أكلت هذا لقتل بعضها بعضاً .. ثم قال الأصمعي لرجل آخر : وأنت ما طعامك ؟.. قال الرجل : اللحم السمين من الشاة الصغيرة .. فقال له الأصمعي : لم يكن هذا طعام عمر بن الخطاب فقد كان يقول رضي الله عنه : أتروني لا أعرف الطعام الطيب .. الماعز الصغير .. ويستمر الأصمعي على هذا المنوال حتى يأتي على كل من هو معهم وهو يكرر عبارته .. بئس العيش هذا .. فلما انتهى .. أتى له واحد من القوم وسأله : وأنت يا أصمعي ما هو طعامك ؟.. قال الأصمعي : يوماً لبن ويوماً زيت ويوماً سمن ويوماً تمر ويوماً جبن ويوماً لحم .. وهذا كله هو عيش عمر بن الخطاب رضي الله عنه ..

وقد قال أبو الأشهب أن الحسن كان يشتري لأهله كل يوم بنصف درهم لحماً فإن غلا فبدرهم ، فلما زاد غلاء اللحم كانت مرقته بالشحم أي : بدهن اللحم ..

وكان أحد العرب يقول : إنه لا مال لذي عيال .. وقد قيل لشيخ من أهل البصرة : ما لك لا ينمى لك مال ؟.. قال : لأني اتخذت العيال قبل المال واتخذ الناس المال قبل العيال ..

وكان جعفر بن يحيى قد زار يوماً الأصمعي في منزله فقد كانت له حاجة عنده ، وقبل أن يدخل منزل الأصمعي قال لغلام عنده : خذ هذا الكيس إن به ألف دينار وانظر فإذا رأيتني أضحك فضع الكيس بين يدي الأصمعي وإذا

لم أفعلها فلا تضع شيئاً .. فلما دخل إلى بيت الأصمعي وجد حالته تقطع القلب .. فهناك جرة مكسورة وفرش قديم ومصلية مرقعة بالية وكان على الأصمعي رداء مهلهل قديم ، فلما رأى جعفر حالته هذه غمز للغلام أن لا يضع الكيس بين يدي الأصمعي .. فلما جلس جعفر إلى الأصمعي وأخذ يحادثه ظل يروي له من الطرف والأحاديث الظريفة ما يجعل الأم الثكلى التي فقدت ابنها تضحك .. ومع ذلك صبر جعفر وتماسك حتى أنه لم يبتسم فقيل له : لماذا لم تؤثر فيك كل هذه الطرائف والأحاديث وكيف صبرت عليها ؟.. قال جعفر : والله إن الراعي الذي يسترعى على غنمه ذئب فقد ظلم ومن زرع سوء الحال حصد الفقر .. إني والله رأيته ينكر المعروف على نفسه ويغالي في مدح آثار الغنى عنده ، وأين يذهب مديح اللسان من مظاهر الغنى على الإنسان .. فاللسان قد يكذب والحال لا تكذب وأنت لست بمحتاج من هذا المعروف ولا عائد له أبداً ..

وقد جاء رجل إلى الأصمعي يقترض منه مالاً كسلفة .. فأخذ يحدثه ويأتي له من الخبر الكثير حتى قال له : إن رجلاً قد طلب من آخر قرضاً كما تفعل أنت فخرج إليه من عنده المال بكامل سلاحه وكأنه ذاهب إلى ميدان معركة فقال له من جاء للسلف : لماذا تلبس هكذا ؟.. لقد جئتك مقترضاً لا متقاتلاً ؟.. فقال له صاحب المال : وما الفرق بين هذين ؛ أنت لو اقترضت مني لماطلتني في دفع الدين كما هي العادة في السلف .. وإذا وصل بنا الأمر إلى القضاء سمعت منك مالا أحب وأكره وفي النهاية ستنقضي ما بيني وبينك من صداقة ونصير إلى عداوة ، فأردت أن أختصر كل هذا وخرجت لك بسلاحي .. وكان الأصمعي يحكي للرجل الذي أراد منه سلفة .. هذه القصة ثم استطرد فقال : إنني لو أعطيتك درهماً لفتحت على نفسي باباً لا تسده الجبال والرمال .. إن الناس فاغرة أفواهها نحو مَنْ عنده دراهم فليس يمنعهم من ذلك

إلا اليأس .. وهم يريدون لي الفقر .. والفقر لمن هو مثلي يعني القتل وقد علمت ما جاء بالقرآن : ﴿ **مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ** ﴾ ..

طبعاً فر الرجل من أمامه وعرف أن السلف من الأصمعي هو المستحيل الرابع أو هو ما فوق المستحيل ..

هذا هو كتاب بخلاء الجاحظ وقد هذّبنا اللفظ والجملة حتى تستوي وعصرنا شكلاً وأسلوباً ، وقد تجاوزنا بعض الطرف والنوادر التي رأينا أنها غير محببة أو لا تحمل التشويق المطلوب .. وفي الحقيقة إن كتاب البخلاء هو وثيقة لعصره بكل ما فيه من نوازع ومظاهر أوردها الجاحظ من خلال طرفه وأحاديثه ، فجاءت كلها مصورة تصويراً للبيئة العربية البدوية في فترة من الفترات وإن كان الجاحظ قد ركز على ناحية بعينها .. ونحن بعرضنا لهذا الكتاب ندعو الله أن نكون قد وفقنا في تبسيط وتهذيب أثر من آثار التراث العربي الخصب الذي لازال ولسوف يظل منهلاً حياً لكل فنون الأدب واللغة والثقافة العربية ..

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٣
مذهبهم في البخل	٧
نوادر أهل خرسان في البخل	١١
حكاية أهل البصرة من المسجديين	١٨
نوادر زبيدة بن حميد في البخل	٢٢
حكاية ليلى الناعطية .... وحكايات في البخل	٢٤
حديث خالد بن يزيد	٢٩
قصة الخازمي	٣٥
قصة الحارثي	٤١
نصائح أبي الفاتك للشباب	٤٧
منطق أصحاب الأملاك وقصة الكندي	٥٠
حكمة الكندي في البخل والشح	٥٥
حوار مع بخيل ..	٥٧
التدبير في منهج التقتير ..	٦٣
أحاديث عن البخل والبخلاء	٧٢
من ابن العقدي إلى الدردريشي	٨٢
أبو سعيد المدائني .. بخيل عصره	٨٧
حكايات في البخل .. من هنا وهناك	٩١

رسالة أبي العاص في عتاب البخلاء ٩٦
الفهرس ١١٥